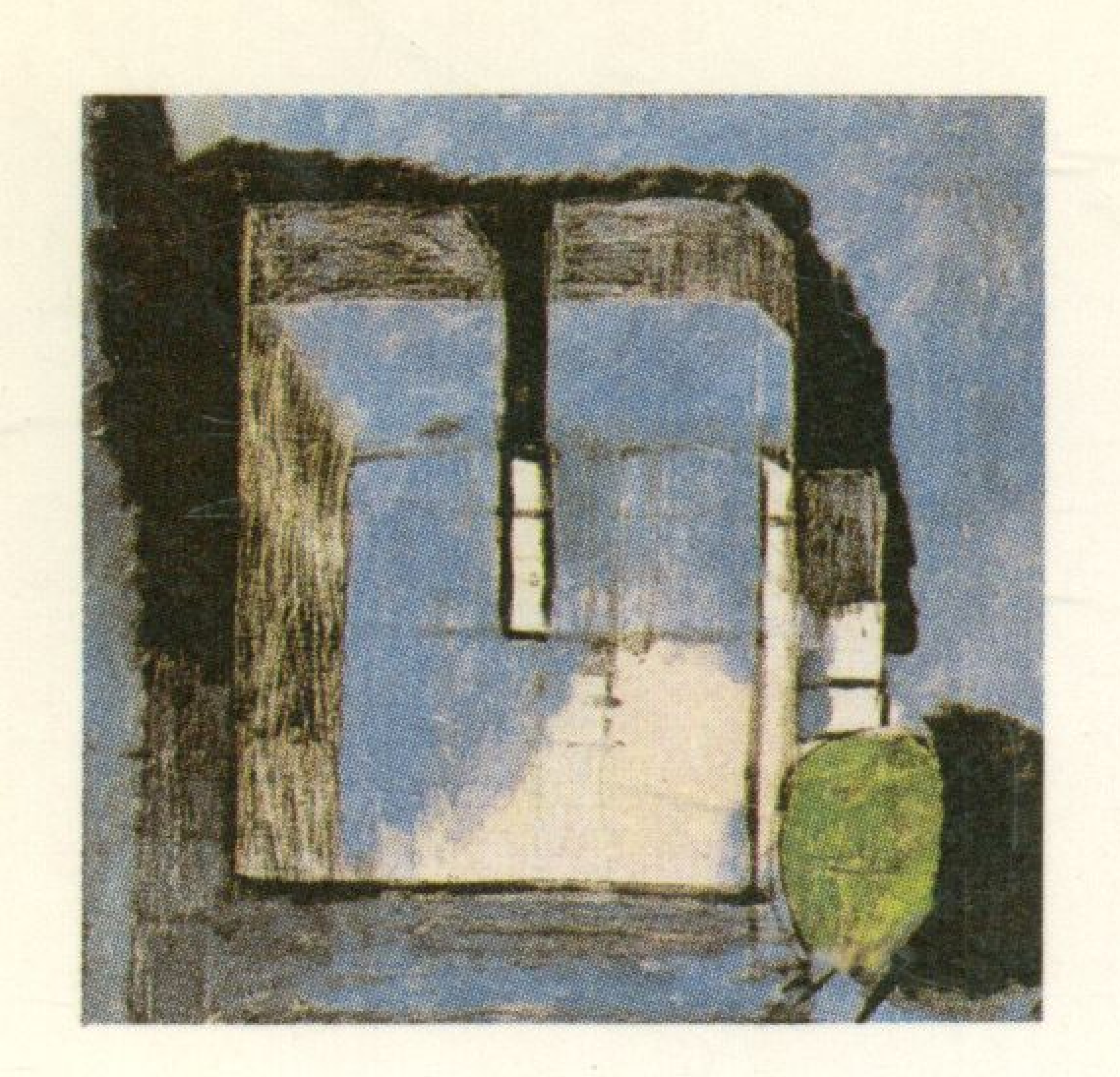
هدى بركات

هدى بركات



أهل الهوى

أهل الهوى



هُدى بَرَكات

أهْلُ الهَوى



دار النهار

شارع روما، بناية فارس
هاتف ۳٥۳٦۹۹، ۳٤۰۰٤٤
تلكس NHRPS ۲۰٤۱۷ LE

| الفصل الأول |

|١|

بعد أن قتلتها، جلست على صخرة عالية.

أغمضت عيني طويلاً حتى هدأت أنفاسي وانتظمت. تراخت مفاصلي، وانسابت أعضائي بعضها إلى بعض واتصلت، كمياه تتهادى بعد لجم ثم تلاحم قويين. كان جلدي يبترد بلطف في النسيم العليل، الآن وقد استعدته. الآن وقد استعدت غلافي الحافظ متيناً كاملاً خالياً من أي تشقق أو ثقوب. جديداً.

تمددت على الصخرة، وتبينت أنها ملساء ناعمة كفراش وثير، تتبع إنحناءات جسمي وتوسع لها. فتحت عيني على قمر كبير وواطىء. كانت سماء نيلية منفوخة بنجوم فجة كثيرة وشديدة الإشعاع كأنها انفجرت لتوّها. كانت السماء طازجة وقريبة ـ كما حين كنت طفلاً ـ أطالها لو مددت يدي. كنت أكيداً من أني قريب الى هذه الدرجة فلم أجهد يدي

وامددها. ما بيني وبين السماء لم يكن سوى الهواء حاجباً رقيقاً وواهياً، ذلك الهواء الذي كان يسري في رئتي المفتوحتين، وقد غدتا جزءاً من حركته الشاسعة المضبوطة.

في هذه الساعة دخلت العالم. كنت أعبّه عباً، وكنت أرتوي. عرفت اني بدأت أملك الآن ما بحثت عنه طوال عمري. أني أملك الآن كل نفسي التي تدخل هذا الفضاء وتصير منه. كأنني أولد. أسيب نفسي للريح والغابة، للوديان والسماء، وتسيب نفسها لي.

عرفت حين قتلتها ورأيت أني قتلتها، أني شربت روحها. أني شربت ملاكها فصار فيّ. انفتحت لي السماء، الفضاء وانفتح جسمي. عرفت أني قديس، وأن جسمي هذا قد بدأ صعوده البطيء ولكن المحقّق، وانهم إذ سيفتحون ذات يوم قبري فلن يجدوني. لن يجدوا سوى رباطاتي مفككة، وكفني فارغاً. . . وسوى نساء يدلقن الطيب على التراب ويركضن فرحات، مبشّرات بغيابي.

إن من لم يقتل لا يعرف.

إن من لم يقتل يظل فريسة أوهامه، فريسة عذابه وبحثه المضني عن الخلاص العجيب. وتنقضي حياته كلها كما تنقضي حياة ذبابة المزابل. تدور في مكانها، وتتخم بأسئلتها الفارغة، وتموت دون أن تحدث ضجيجاً في الهواء.

إن من لم يعرف الهوى، والغرام مكتملاً كشمس، لا يعرف. مكتملاً، الغرام، كفطر نووي عملاق لإنفجار واحد وأبدي وثابت، لا يعرف. لا يعرف أن بذرة الموت تنزل في رطوبة الظلمة الملائمة. حين نوقن من اللمسة الأولى أنه هو نفسه، ذلك الجلد بحرارته الملائمة المضبوطة استثنائياً ونهائياً من أجل حرارة جلدنا. بذرة القتل.

لكن ذلك الشبق لا يكتمل دائماً في النفوس الصغيرة. في النفوس الصغيرة التي تمرض. تنصرف الى البكاء وسماع الأغاني والتأمل الحزين في صور فوتوغرافية قديمة. تلك النفوس الموقوفة، الممنوعة عن الإكتمال.

إني أفور وأفيض على العالم الرضيع كحليب مبارك. أفيض ولا أنقص. ولا سبيل الى إنقاصي. فقد مُنحت الغفران... النعمة. نعمة أن تينع البذرة في رطوبة نفسي وتنمو وتزهر وتثمر، فنقطف ونأكل الثمرة. نأكل الثمرة فندخل الجنة. نعود إليها بالاستحقاق والجدارة المناسبين.

أقوم الآن عن الصخرة وأمشي. أمشي خفيفاً طائراً. أفتح ذراعي كيوحنا وأغنّي. ويخرج ذهب كثير من فمي. وأغني مبشراً باسم الرب الذي عرفت. الرب الذي لمست وعانقت. أمشي، وأغني عالياً، ولا ألتفت ورائي حيث تركتها عند رجمة الحجارة، ذلك اني موقن أنها لم تعد هناك... أنها فِيَّ، أو أنها صعدت الى السماء.

كان الفجر موشكاً على الطلوع. وتراءت لي سطوح القرى الصغيرة في الجبال المقابلة، وهي غارقة ما زالت في أبخرة نوم الفجر البنفسجية... رحت أغني عالياً للشمس التي ستشرق لي، وتغمرني بحرارتها العارمة.

|٢|

بقرة مرقطة، بالأبيض والبنيّ.

لا، بقرة صهباء.

بقرة صهباء ترعى في سهل أخضر مترام. السهل قصير العشب، وليس هناك شيء آخر أبداً. حتى ولا أشجار أو بركة مياه تعكس السماء الشديدة الزرقة.

الوقت بعد الظهر، والشمس تميل الى الغياب. ومن وقت لآخر تخور البقرة خواراً طويلاً فاتراً. تهز رأسها يمنة ويسرة، ثم تعود الى وقفتها الثابتة تنظر في العشب البعيد.

كل هذا غير موجود.

إلا أن هذا الكلام، إلا أن كل هذا الهناء الذي يملؤني يجعل صورة البقرة في السهل صورة حقيقية لأنها الأقرب إلى ما أنا عليه في هذا المكان.

الحديقة واسعة وكبيرة جداً لكنها ذات منعرجات كثيرة،

ولا تبدو إلا اقسام قليلة منها للعين أينما انتقيت الجلوس على مقاعدها الخشبية الكثيرة، ذلك أنها تمتد وتلتف حول جميع الأبنية وتصل في ما بينها، إذ تتخلّل الحديقة تلك المماشي والمسالك المحدّدة بالحجارة الصغيرة والنبات المزهر، والتي تكون أرضها مصقولة باتقان ليسهل سير عجلات الكراسي عليها. دون أن تهتز كثيراً بحمولاتها السريعة العطب.

حيثما أقف لا أرى الأسوار التي تلف المكان وتحيط به. فالأسوار ليست عالية جداً، ومن الخارج لا يرى المارة على الطريق العمومي سوى الأقسام العليا من الأبنية. وأمّا لمن هم في الداخل فالسور لا يمثُلُ إلا إذا إقتربت جيداً من حجارته التي غطت الطحالبُ أكثَرها لسماكة الظل الذي ترميه عليها الأشجار الباسقة اللصيقة بالسور.

والأشجار الباسقة بقيت باسقة طوال هذه السنوات، بينما تقصفت كل أشجار المدينة وأحراجها، واحترقت. المدينة التي نحن لصيقون بها من على تلتنا الصغيرة الغارقة ـ ما زالت ـ بالخضرة النضرة. فدير الصليب ـ اسم تلك التلة الصغيرة الغارقة بالخضرة النضرة ـ كانت من المناطق التي لحقها ضرر كثير لكن المستشفى حفظه الرب كما تقول الأخوات الراهبات، وباصرار أعمى، وبقي عائماً دون باقي مستشفيات البلاد جميعها على مياه رحمة الرب طيلة السنوات الطويلة. ولصدفة عجيبة اتّفق جميع المتحاربين ـ مع الرب ـ على أن يبقى هذا المكان، وهذا، المكان فقط، خارج كل أنواع القصف والتدمير، حتى العشوائي تماماً منه.

. فدير الصليب هو مستشفى الأمراض العصبية والعقلية الذي حملني إليه أهلي بعد أن ضاقوا بي، وأحزنهم حالي حزناً عميقاً.

حين قدموا بي إلى هنا كاد يغمى عليّ من الدهشة إذ عجبت كيف اختاروا الأيام التي كنت فيها الأكثر سعادة في حياتي كلها ليبكوني ويودّعوني على هذا النحو. رحت أصرخ لكن الكلام لم يكن يسعفني ويخرج من فمي لأفهمهم. كانت اختي أسماء تبكي بدموع غزيرة وهي تكلم الراهبة وتقبّل الصليب الأسود الكبير الذي على صدرها. ثم راحت وهي تنظر إليّ ولا تراني، ولا تحاول حتى فهم الحشرجة التي كانت تخرج من حلقي ورئتي جعيراً استميت لجعله كلاماً، كذلك الذي كنت أخرجه بسهولة ولم أعد أتذكر حتى عناصره الأولى التي تصل من الصدر الى الفم فيمتلىء فيه بالرطوبة والحركة ويخرج، راحت أسماء تبكي بصوت مسموع، وهي ترتب أغراضي القليلة في الخزانة الحديدية البيضاء... كنت اتنفس بعمق وسرعة، وأريد فقط أن أتوصل إلى إخراج اسمها من فمي قبل أن تتركني هنا وتذهب. أ س م ا ء...

كانت تمشي في الممر حين لحقت بها متفلتاً من الأيادي الكثيرة. كانت تمسك يد الراهبة وتبكي. تلتفت إلي ثم تسير بخطى أسرع. ثم خرجت من الباب الكبير الذي انغلق وراءها دون أن أنجح حتى في الإشارة البعيدة إليها بأني ـ يومها بالذات ـ كنت في أحسن حالاتي ـ كنت انساناً سعيداً.

|٣|

لم اعرف كم من الوقت مرَّ عليّ حين زارتني اسماء للمرة الأولى، وهل كانت المرة الأولى فعلاً؟ كانوا يبقونني نائماً طوال الوقت، وزعلت منها حين رأيتها واقفة أمامي بعينين حزينتين لكن فارغتين تماماً. نظرت من النافذة البعيدة، في طرف الصالون حيث أتوا بي لرؤيتها وتبيّنت أن الفصل ما زال خريفاً كما حين أتوا بي، لم تطل غيبتها عني إذن. محوت عتبي سريعاً وابتسمت لها. فابتسمت لي.

اخذتني من يدي وسارت بي الى الحديقة. كنت انظر الى يدها الصغيرة والى قمة رأسها التي لا تتجاوز مستوى كتفي. أسماء صغيرة الحجم مثل والدي، وأنا جثتي كبيرة جداً مثل جدي لأمي. اجلستني أسماء في الشمس والهواء وراحت تبتسم لي ولا تكلمني. رأيت أني انتعل شحّاطة بشعة جداً فنزعتها بقوة عن قدمي الباردتين، وقلت لأسماء لماذا اتيتني

بهذه الشحاطة فأنا لا أريدها. وانتظرت أن تكلّمني.

أيامها كنت أنسى دائماً أين أنا. أسير وأسأل الناس في الحديقة أين نحن، لكنني ولا مرة كنت أسمع الأجوبة. ولا مرّة. في الغرفة لم أكن أسأل نفسي هذا السؤال لكن في الحديقة - عندما صاروا يسمحون لي بالنزول الى الحديقة - كنت أنسى أين أنا... ثم تعوّدت أن أنسى أين أنا، فرحت استمتع بجلوسي فيها. وأتنزه.

كل زيارات أسماء اللاّحقة كانت تشبه الزيارة الأولى رغم أنها لم تعد تبكي، وصارت تحادثني وتحمل إليَّ أغراضاً كثيرة لا أتميز ما هي. لكن اسماء صارت تضجرني كثيراً، ربما لأنها كانت تعتقد بأني حزين او أني استدّر الحزن صرت أنساها كثيراً... كأنها لم تعد أختي اسماء. حين أطيل النظر إليها كنت أرى أبي. أرى أبي، أرى أبي، أرى أبي. وأقول لها أريد أن أصعد الى فوق لأني تعبان. وتذهب أسماء.

أرى أبي يضع يده على أذنه. يتنحنح، ثم يضع يده على أذنه، ويغمض عيناً لأنه سيبدأ الغناء بصوته الرقيق الحنون والصغير الذي يشبهه. والناس كثر في بيتنا، لكنهم يهدأون حين يقول «أوف» ويتركون كؤوس العرق الصغيرة من أيديهم، وتتخذ وجوههم ملامح رضا عميق وهم يهزون رؤوسهم، ويجيبونه أوف أوف أوف.

أضع بصعوبة يدي على أذني، لكن رأسي الخفيف يروح في كل الإتجاهات فلا أمسكه. لا أمسكه إلا حين أسند ثقل جسدي الكبير كله إليه. أسنّد رأسي بأعضاء جسمي كلها كأنها ارائك وهو يستمر طافياً كفليّنة أو رخواً ملتوياً على رقبة كرقبة الرضيع. كثيراً ما يُسقَطُ في يدي، وأترك رأسي ملوياً على حاله، في موضعه، ولو على ألم يكاد يفتق فقرات رقبتي،

ذلك أنه يخدر بعد حين وأنساه. فأدفأ، واتوازن، وأرتاح.

أضع رأسي أحياناً تحت إبطي، أو ركبتي وأتقوس فوقه لعلّ سوائل أعضائي تملأ فراغه، وتكففه عن الوقوع في كل الإتجاهات اعرف أنه بعد قليل سيهدأ وسيستكين، وسأعمد الى هدهدته ضابطاً جميع جسمي على إيقاع واحد يستحسنه. وشيئاً فشيئاً أجعل حركتي دقيقة مترادفة كرقاص الساعة الثقيل... وأزيد من ضبط الإيقاع بصوتي. يخرج صوتي من بدني الملفوف على شكل وردة. على شكل نينوفر تتهادى على موجة صوتي الموقعة اللطيفة. يخرج صوتي من كل بدني الى حنجرتي ثم يعود يتجوّل فيه. أريد أن اغني كأبي. بدني كله أضعه الى أذني، ويخيّل إلي أني أغني كأبي... إذذاك لا أضجر. ولا أنسى نسياناتي الطويلة الكثيرة. لكن صوتي لا يعجب أحداً. صوتي يجعل الجميع حولي مضطربين وفي هياج. حتى يأتي الممرضون لتفكيكي وإسكاتي.

في البدء كنت أقاومهم. كان جسمي قوياً جداً. كبيراً وشديد البأس جداً. وفي لحظات غضبي كان يطير ويحلق فوقهم كصقر. حين أدفع واحدهم بمرفقي، كان يقع أحياناً بعيداً عني مغشياً عليه. أقف أمامه مدهوشاً ناظراً في قوة نفسي. لا اصدق بعد أن أهدأ بأني على هذه القوة، وأتساءل تراها أين كانت تكمن تلك القوة الهائلة، تلك الخفة والسهولة في استعمال أعضائه الثقيلة. أمام قوة جسمي كان الممرضون، الذين يحبونني حين يحممونني، يحنقون كثيراً، ويندفعون بغضب. يضربونني بغضب لأنهم يفاجأون من أين يستمد جسمي الكبير الهزيل كل قوته تلك. يخبطون علي بأجسادهم، كأنهم يكرهونني، وأنا أعرف أن لا. أظل أجعر، وأخابطهم حتى يهدني التعب، وتنفك مفاصلي

وأرتاح. لكنني بعد فترة صرت أقع بسرعة قبل وصولي الى متعة التعب والتلاشي بكثير. صرت اختصر متعة امتلاكي قوتي منذ عرفت بأن الأمر سينتهي بي دائماً الى الحقنة. كنت اكف قبل أن يأتوني بالحقنة، ولا أفهم لماذا كانوا يستمرون بضربي لوقت. لا يكرهونني، لكنهم يكرهون صوتي وقوتي. وربما يكرهون قيامي بينهم مريضاً. لا يقبلونه لي.

لست مريضاً قلت لأسماء. خذيني الى البيت. قلت لها ذلك بعد فترة طويلة عرفت فيها أني أصبحت هادئاً جداً. إذ يتركونني أتجول أينما أريد. يمازحني الجميع ويتدافش بي المرضون. يقرصونني في أليتي أو يمدون أيديهم الى عضوي ضاحكين. وحين أستره سريعاً بيدي الاثنتين يقولون لي ماذا تخبيء عنا. لم يعد هنالك شيء، لقد وقع. فأضحك معهم إذ أعرف أنهم يمازحونني.

لم أعد أحب اسماء، وصرت اجد أنها تكثر من زياراتها وتبالغ جداً. لا أراها سوى خارجة عائدة وحين أتكلم اليها اقول: لست مريضاً يا أسماء خذيني الى البيت. تظل لا ترد سوى بابتسامتها الفارغة حتى كففت. صارت أسماء بشعة حين كبرت واكثر ما أرى في وجهها شاربها الأسود. ثم قلت لنفسي لماذا أريد أن اغادر هذا المكان وأذهب للعيش مع أسماء؟

عرفت أني صرت رجلاً هادئاً لأنهم يفلتونني طيلة النهار تقريباً. أتجول كيفما أشاء وعند ابتداء القصف يطلبون مني حتى أن أساعدهم في إنزال المرضى والأغراض الى الملجأ. أي الى الطابق ما تحت الأرضي الذي يشغل نصف مساحة المبنى. ساعدتهم في تهيئته بعد أن ازداد عدد النزلاء. الصاخبون تركنا لهم حجرة واسعة. كنا نمددهم فيها بعد إعطائهم الحقن

ليهدأوا ويناموا...

لم تكن السهرات حزينة على نحو خاص في ليالي القصف. فقط كنا نخاف كثيراً من بعضنا... ربما أكثر من خوفنا من أصوات الانفجارات القوية التي كانت تفتح رؤوسنا على الهستيريا والصراخ. لكننا كنا نأخذ الحبوب الحمراء. نخاف من بعضنا لما ترميه الشموع المرفوعة على الرفوف الصغيرة، عبر شباكها الحامية، من ظلال تغيّر ملامحنا. لكننا رغم خوفنا، كنا نتدافع بأجسادنا نحو زاوية واحدة، نتراكم فوق بعضنا في زاوية واحدة. ربما لأننا كنا نبرد كثيراً في الليل. فالملجأ رطب جداً، ولا تقينا الأغطية الصوفية برده بعد أن تطفئ الإدارة كل الموتورات، موتورات الإضاءة وتلك التي تشغّل التدفئة... طبعاً كان يجب أن نوفر الطاقة الآخذة بالتناقص إذ كانت البلد كلها في نقص حاد لمادة الفيول. هكذا كنت أفهم أنا ما يجري، ولا يفهمه الآخرون الذين يأخذون أحياناً بالعواء الطويل في الملجأ. كان باستطاعتي أن أُسكتهم اكثر مما يفعل الممرضون والراهبات. كانوا يزيدون من التصاقهم بي، ربما لأني كنت الأكبر جسماً أو الأكثر دفئاً فيعتقدون أني أبوهم. كانوا يدخلون تحتي كأني دجاجة كبيرة، ويروحون يمرّغون رؤوسهم الحليقة بي، ويشتّمونني كالصيصان أو كالجراء. كالجراء كانوا يحدسون بعودة القصف الى عنفه حتى حين يكون الليل هادئاً تماماً، ونكون على استعدادنا للعودة الى غرفنا وأسرّتنا. تجحظ عيونهم، وتتوتر حركتهم ويستفيقون إن كانوا نياماً. يصدرون أصواتاً سميكةً وعميقة من حناجرهم، ويتململون في كل الاتجاهات... ثم يعود القصف الى عنف اشتعاله.

عرفت أني أصبحت رجلاً هادئاً لأني لم أكن كذلك في

البدء. لأني صرت أراهم، وأعرف أنهم لا يرون بعضهم. ولأني كذلك لم أعد أتبدل بسرعة، وانتقل من حال إلى حال.

في البدء، كنت أكون هادئاً في الملجأ، لكن يكفي أن يصرخ أحدهم حتى يشتغل جسمي كلّه. يقف فجأة شعر رأسي، وتنتفض أعضائي على أسلاك معدنية مكهربة. تعود تلك القوة الباهرة تحقن جسمي كله وتنتره نترةً واحدة، وتدفعه ككرة الى الحائط. آخذ بالجعير وبطرق رأسي في الحائط حتى يفج. وحتى يصدر طنيناً عميقاً مقطعاً يعلو على أصوات القذائف الساقطة، ثم يمحو تلك الأصوات تماماً، ويحلّها فيه، في لذة حداثه هو، الوحيد.

لكني الآن أعرف أني لم أعد كذلك.

|٤|

لقد تغيّرت كثيراً.

ليس فقط بالنسبة لليالي القصف التي لم تكن حزينة على نحو استثنائي، خاصة بعد أن صرت أرى أن الجميع يصبحون أكثر مودة ولطفاً إذ كنت أحياناً اتفرج على الممرضين يلعبون الورق، وينتهي الأمر بهم إلى إطفاء الراديو ولغطه الممل وإلى الكف عن سماع ملاحق الأنباء المتسارعة. كانوا يطعمونني، هم والراهبات، من سندويشاتهم الطيبة، ولا يعنّفونني على توسيخ ملابسي بالبندورة المنزلقة ممزوجة بالزبدة والمايونيز من بين الرقائق البيضاء. كنا نمزح. كنا نمرح كثيراً حين ينام الآخرون. ويهدأون تماماً. إذ ذاك كانوا يحادثونني كأني واحد منهم، وينظرون طويلاً في عيني. تقول الاخت سور فانسان دو بول: انت صار يجب أن تخرج من هنا. فيهز الباقون رؤوسهم بأسف إذ كنت خرجت ثم عدت في مدة لم

أعد أتبينها.

كان يخيل إليَّ أن الأخت فانسان دو بول الجميلة الشابة التي كلمتني ذات يوم بعيون دامعة عن سيرة حياة شفيعها فانسان ـ أو مار منصور ـ كان يخيل إلي أنها قريبة يسوع المسيح، ومن عائلته. كأنها تعرفه شخصياً وقد جلسا سوية هنيهات طويلة على مصطبة دار تعج بأهلهما المنصرفين الى إعداد الطعام أو لعب الورق، فيما هما شاردان في الأفق البعيد يتكلمان بتؤدة عن المعذبين في الأرض.

كنت أحب تلك الراهبة، وأطيعها تماماً لأنها لم تكن تحترم القوانين كثيراً، وتتركني أحياناً أفعل ما لم يكن مسموحاً، كأن أسراراً كانت دائماً بيننا. فالأخريات كن قاسيات. وكأنهن هناك من أجل المستشفى. من أجل ابنيته وأروقته لا من أجل من هم فيه... وكن يحببن الأطباء أكثر منا بكثير وينظرن إلينا كأننا ضحايا وساوس الشياطين. لا يردن منا، خاصة في ليالي القصف، سوى أن نتكدّس هادئين كالأموات لينصرفن الى خوفهن، ولكي ينسين غضب الرب المتمثّل فينا، في مسخنا الى كائنات تشبه القصاص الماثل أمام المؤمنين عبرةً.

لكن أنا كنت شيئاً آخر. وهنّ عرفن أنني تغيرت كثيراً. فحين ذهبت مرة باكياً، مجهشاً بالبكاء، الى الأم الرئيسة وقلت لها مقبّلاً صليبها أني أريد أن أستحم لوحدي، حدقت فيّ طويلاً ثم حدّقت في الحائط ثم قالت لي: سوف نرى.

في البدء كنت أكره الحمام كثيراً. يأخذوننا بعد أن يسري مفعول الحبوب والمهدئات فينا، لكن جسمي الكبير لم يكن يستكين تماماً، فيجرونني جراً إلى غرفة كبيرة مع أربعة أو خمسة آخرين. يخلعون عنا ثيابنا القليلة ويجلسوننا أرضاً على البلاط المبلول. لا يلتفتون أبداً لسخونة المياه التي يدلقونها

علينا بكثرة تمنعنا أحياناً من التنفس، وتخض رؤوسنا خضاً. تكون باردة أو حارة جداً، فلا يلتفتون الى ما نقول. نيأس سريعاً ونروح نمد سواعدنا لليّفة الخشنة. كنت اكره أن أرى نفسي عارياً. لكن أكره أكثر أن أرى الآخرين عراة، ولو اني كنت أعرف أن لا أحد يلتفت إليّ. يقلّبوننا بسرعة ومن غير دراية، ويوجعون أجسامنا الهزيلة الشديدة البياض ولا يهتمون. ذلك لأن لا وقت لديهم لهدهدتنا ومراعاتنا فنحن كثر. والمياه قليلة جداً، تحملها السيترنات حين تتوافر، وحين يتوافر المازوت لتسخينها... ونحن كذلك كثيرو التشكّي وكلنا نكره الحمام كثيراً. ونهلع من دلق المياه علينا.

والممرضون يضجرون من تقليبنا كالأطفال، إذ تغدو الأجسام ثقيلة عند البالغين، ولو كانوا شديدي الهزال. ربما انحطاطها وخمولها يجعلها ثقيلة الى هذا الحد. ونحن نحتج بأن نترك اجسامنا ولا نساعدهم فيزداد تعرقهم في البخار فوقنا، ويؤلموننا كأن عن قصد منهم... لكن الألم عندنا شيء آخر لا يعرفونه هم. لا يعرفون كيف نتوجع ولا كيف نرد الفعل على وجع أجسامنا، لذا يزدادون عصاباً منا ويروحون، من أجل أن يتسلوا، ويرّوحوا عن أنفسهم. يروحون يمازحون بعضهم بنا وبأعضائنا، بأعضائنا الجنسية. يتضاحكون ويضحكوننا. نضحك معهم، ونحن نتفرج على ما يمازحوننا عليه كأنه ليس لأحد من الحاضرين. يبالغون في حبسنا في تلك الأماكن كأن لها أهمية ليس لنا القدرة على استبانتها. وأكثر الأحيان كان ينتهي الحمام على ضحك كثير حتى نصير نرفض أن نقوم من أماكننا ونروح نردهم إلى ما يطيل الوقت. نروح نرد اهتمامهم إلى أعضائنا الجنسية. لكنهم مسرعون دائماً. ينهروننا ثم يحملوننا ملفوفين بالمناشف

البيضاء الكبيرة. يلبسوننا الثوب الكتاني الأبيض نظيفاً بكامل أشرطته التي تقفله من الخلف ثم يسرحون شعرنا قبل أن يعيدوننا إلى أسرتنا لنأكل وننام.

أنا كانوا منذ البدء يراعونني على نحو خاص. يشفقون على جسمي كثيراً. يقلبونه كانوا بتؤدة وأبقى بين يدي الممرّض حتى بعد أن يخرج كلّ الآخرين.

كانوا اكثر إشفاقاً علي في البدء لأن جسمي كان ناحلاً جداً على كبره وتخن عظامه، وكان ما زال يحمل آثار تعذيبه ولو قليلة وغير عميقة. فمعصمي الذي بقي مكسوراً مدلّى لوقت طويل لم تعد اعادته الى مكانه الأصلي ممكنة تماماً، وكذلك ظهري الذي بقي لوقت يعذبهم في الحمام إذ كان عليهم أن يبقوه ناشفاً والا تصل المياه الى ضماداته. كانوا يرقّون لي حين كانت تصل الليفة الى بعض الانبعاجات، فيشيرون بأصابعهم ويكررون اسئلتهم دون انتظار إجابتي: ماذا فعل بك هؤلاء العكاريت، ماذا فعلوا بك اولاد القحاب... انظروا هذا الجسم الجميل كيف صار، كانوا يقولون... لكنهم بعد مدة نسوا، ضجروا شيئاً فشيئاً إذ شيئاً فشيئاً صار جسمي يتعافى والآثار تمحي... ضجروا كذلك حين صاروا يرون أني لا اعرف عما يتكلمون لا أجيب على اسئلتهم. وداخلهم شك عميق بأني أشعر بالألم في تلك المواضع.

كان يحصل في أكثر الأحيان ان ينتهي الحمام على ضحك ومزاح... لكن ذات مرّة بالغ الممرض الثقيل «نخلة» في مزاحه في الحمام مع جابر، لأن جابر مسلم وكان مطهّراً ولا يشبه عضوه أعضاء الآخرين كثيراً، وربما أوحى التطهير بأن عضوه اكثر صحة من أعضاء الآخرين الهزيلة. ظل نخلة يبالغ حتى تقدّم منه ممرض آخر، ودفشه عن جابر بالقوة،

فعلقت بينهما في الحمام وراحا يتضاربان بالبوكس وينزلقان في أرض الحمام حتى خرج منهما الدم. ونحن مدهوشون، خائفون، ونصرخ حتى أتى الناظر وفكّهما عن بعضهما وشتمهما وشتم نخلة على الأخص، ثم دلقوا علينا ماء بسرعة ونشّفونا حانقين وأخرجونا. ولم يمشطّوا شعورنا ذلك اليوم.

في ما بعد صرت استحم لوحدي، وتقريباً حين أريد أو تتوافر المياه. وحين عاد جابر الذي خرج لمدة طويلة صرنا أصحابا. ليس بعد عودته مباشرة بالطبع ولكن بعد مدة. صرنا اصحاباً حتى أني قلت له ذات يوم: يا جابر قل لأختي أسماء حين تأتي في المرة القادمة، قل لها إنك أنا، فأنا لا أريد أن أراها...

٥

كانوا يعتقدون أني مريض في عقلي، ويأسفون لحالي لأنهم اتفقوا أن كل ذلك أصابني لأني خطفت مدة طويلة وعذّبني خاطفي.

الطبيب الشاب وأسماء اختي والراهبات، وكذلك الممرضون، كانوا يعتقدون أن حادثة خطفي وتعذيبي، واختفائي الذي طال في المنطقة الغربية من العاصمة ـ حتى اعتقدوا اني مت ـ هي السبب. لقد أتوا بي الى «دير الصليب» بعد أن اخرجوني من مستشفى «أرزة لبنان» حيث بقيت. . . لم أعد أدري كم من الوقت. أخبرتني اختي أسماء كل ذلك وكأنها قصة رجل آخر، لا أعرفه، وبذهنها أني كنت غائباً تماماً عما يحصل لي.

كانت أسماء، إن أعادت رواية ما حصل لي عليّ، وهي قد أعادتها كثيراً، تُبدّل وتُغيرّ في روايتها. كنت أتساءل إن كانت

تفعل اختي ذلك عمداً. لتختبر درجة وعيي وتركيزي، ولترى إذن، إذا ما كنت سأكتشف تلاعبها. أو أنها كانت تعدّل فتنقص وتضيف لغرض في نفسها. أو تراه لسهوها ونسيانها هي أيضاً. أو لزيادة انشغالها وهمّها عليّ، لإفهامي بأنها تحبني وتريدني أن أعود إليها. الى المنطقة التي تعرفها لي. لذا كنت استمع إلى أسماء بدهشة من يستمع للرواية للمرة الأولى فعلاً، فيتأكد ما بذهنها من اني كنت غائباً آنذاك عما يُصيبني وما زلت غائباً... وتروح من جديد تعيد الكرّة.

كنت أعرف اني في المستشفى ـ حين كنت في «أرزة لبنان» ـ ثم أنسى، خصوصاً حين كانوا يلحون عليّ بالأسئلة... وحين كانوا يتحادثون حولي، دون دراية، عن سبب مرض عقلي. الذي يردونه، بإلحاح وحنق عظيمين، الى خطفي وتعذيبي في أقبية المنطقة الغربية من العاصمة.

ففيما كنت نازلاً، ذلك الفجر، أغنّي في عرضان الجبل، والشمس موشكة على الشروق، استوقفني شباب كانوا يقطعون الجبل في الوعر مثلي. لم أتبينّهم إلا حين اقتربوا كثيراً إذ كانت ثيابهم مرقطة تموّههم مع الحجارة والأعشاب.

رأوا آثار دماء على قميصي، فأحاطوا بي من كل الجهات، وراحوا يقتربون على مهل موجّهين بنادقهم الى صدري. ثم عرّوني من ثيابي وأركعوني على الأرض ويداي مشبوكتان فوق رأسي. انحرف مزاجي قليلاً وقررت أن لا شأن لي بهم، وأني لن أكلمهم. فتشوا طويلاً في ثيابي ولمّا لم يجدوا فيها أي أوراق ثبوتية راحوا يتحادثون فيما بينهم كأني غير موجود، فقلت في نفسي: حسناً. سكتوا قليلاً ثم هجموا علي وراحوا يضربونني ويسألونني. وأنا أفكر يائساً وضجران في تعاسة هذه المصادفة التي جعلتني التقي هؤلاء البشر في تلك اللحظة العارمة

بالسعادة بالذات. في اللحظة التي قبضت فيها على روحي الطازجة الكاملة الطاهرة، الوليدة لتوّها. في تلك اللحظة بالذات، حين لم يعد لي أي علاقة بهذا العالم كلّه. في اللحظة التي كنت أسبح فيها فوقه، وأراه يكرُّ ويسيل تحت قدمي وتحت غنائي. يا الله. يا الله. كنت أقول وهم يضربون.

ظلوا يضربون طويلاً ولكن، هكذا، في لحظة واحدة، عرفت حقيقة مدهشة جعلتني أدرك اني لم أضيّع سعادتي تلك أبداً. في لحظة واحدة، هكذا، عرفت وأنا أنظر الى الدم يطرش من فمي الى كامل جسمي العاري بأن ألمي ليس ألماً. ليس كذلك الذي عرفته في السابق والذي كان يجعلني، على قوتي، أجعر وأحنق إذا ما ضربت ركبتي سهواً بزاوية حادة. . . صرت أرى الوجع كما في الحلم. أنا ولست أنا. جسمي وليس جسمي. وكأنني أتفرّج. وكأن لي جسمين. ليس كهذين الجسمين الماضيين اللذين كانا يعذبانني في افتراقهما، وفي أجتماعهما. جسمان اثنان، ولكنْ آخران. مختلفان.

كانوا يضربون، وكنت أنظر ولا أصدق. يخبطون عليّ فأقع وأرى الحجارة الصغيرة قريبة جداً من عيني، واسمع صوت تنفسي في التراب المتطاير الملتصق على دم أنفي، وكأنني أتفرج، وأتابع الملاحظة الدقيقة بما يشبه التشويق. يرتج جسمي عند خبطه، لكن الوجع يبقى مكان اللطمة. لا يصل الى رأسي ولا إلى قلبي. حين رأيت ذلك رحت أضحك. ربطوا يدي ورجلي وحملوني إلى مكان بعيد.

عندما استفقت وجدت انهم ربطوا وسطي بخيط رفيع متين شدّوه كثيراً. كنت مطروحاً أرضاً لوحدي في مكان مظلم. عرفت بأني انتفخ وأتورّم، بسرعة. كانوا بين وقت

وآخر يأتون إلي. يجلسون بقربي ويحاولون بالهداوة واللطف حملي على الكلام لأتخلّص مما أنا فيه. احياناً ينظرون إلي بدهشة، وأسمع أحدهم يقول بأني مجنون فعلاً ولا أصطنع، فيجيبه آخر بأني رجل خطير وكذاب وبأني قد قتلت أحداً، ويريدون معرفة قصتي... في أحيان أخرى كانوا ينتهون الى وجوب قتلي والتخلّص من رائحتي، لكنهم سرعان ما يعودون الى الضرب وإلى طرح الأسئلة. تكلّم... تكلّم وأنا رأسي أبيض، ليس في داخله سوى رغبة ان استمر بأغنيتي التي كنت مستغرقاً في أنغامها. هابطاً عرضان الجبل، في ذلك الفجر الجميل...

تكلّم.

أي كلام؟ أي كلام يا أخوتي؟

ثم يحنقون. يحنقون أو يخافون مني ويضربون بقوة، وأنا أنظر مكان ضربهم، ولا أتبين في العتمة غير القليل.

في نسياناتي الكثيرة لم أعرف كيف ومتى نقلوني الى غرفة مظلمة حيث وجدت نفسي مع آخرين، كنت أحسن حالاً هناك في أوجاع جسمي لكني كنت كثيراً ما أصاب بالإسهال. كنت أنام كثيراً واستيقظ أحياناً لأجد أن رفاقي قد تبدلوا وبأن الوجوه التي أراها ليست تلك التي تركتها بجانبي قبل أن أنام.

جاؤوا ذات يوم وفي أيديهم بدلات رياضية كحلية اللون، جميلة وذات خطوط بيضاء. فرحت لما رأيت الشاب الذي يحبني ويمازحني دائماً، معهم. هذا الشاب كان يدللني ويأتيني أحياناً بالواح من الشوكولاته الطيبة، ويعطيني حبوباً لمنع الإسهال ويحادثني. أعرف أنه أحياناً كان يضحك مني، ويهزأ من منظري مع رفاقه، لكني كنت أحس بأنه يحبني،

أقول بأنه يسايرهم، وأشعر بالرضا حين يكون موجوداً، واشتاق إليه إذا ما تأخّر عليّ.

غسلوني ذلك اليوم دون تأفف أو صراخ وضرب. وألبسوني البدلة الرياضية وقالوا سنعيدكم الى أهلكم في عملية تبادل مخطوفين، فاستعدوا. رجل بجانبي راح يبكي فرحاً ويشكر ربه مجهشاً بصوت عال. بحثت في رأسي طويلاً وأنا أتساءل ماذا يعني أنهم سيعيدوننا الى أهلنا، حتى وجدت أسماء. وأدركت أنهم سيعيدونني الى أسماء.

كلنا كنا فرحين، ما عدا واحد. وفيما أنا أنظر إليه متسائلاً تذكرت أنه هنا معي منذ وقت طويل. تذكرته، الاستاذ الجامعي لكثرة ما كرر أنه استاذ جامعي، وأن لا دخل له بشيء، قبل أن يقرر الصمت نهائياً، مثلي، تقريباً مثلي. هو فقط كان خائفاً ومتوتراً. وحين سألوه قال يا أغبياء سوف يقتلوننا. سوف يخرجوننا من هنا ويقتلوننا. قال له الرجل الذي كان يشكو ربه وينحب: لماذا تقول ذلك... هل أتونا بالبذلات الرياضية ليقتلونا؟

مرّ وقت طويل ونحن بالبذلات الرياضية ننتظر. ورحت أنا في النسيان.

|٦|

كان الوقت ليلاً حين أدركتُ أننا في باص يتعرّج بنا مسرعاً في طريق مهدّمة وقاحلة تماماً، وبين أعشاب برية كبيرة تخبط بقوة على زجاج النوافذ. كنت أسمع عواء كلاب كثيرة كانت ترافقنا نابحة. تظهر فجأة من العتمة الحالكة، وتشرئب وراء الزجاج فاتحة أشداقها الكبيرة. ثم تتوقف في أمكنتها وتواصل النباح.

توقف الباص وأطفأ أضواءه. نزل حرّاسنا منه ما عدا واحداً مكث يراقبنا. لبثنا صامتين تماماً. وكنت خائفاً. أنا والاستاذ الجامعي الذي كان شاحباً ويرتجف بقوة في مكانه. بعد قليل، طلع رجل من الصليب الأحمر ومعه شاب أجنبي أشقر. راحا يتكلمان بالانكليزية ويهزان رأسيهما أسفاً وهما يتفحصاننا عن قرب.

أنزلونا من الباص وصفّونا، ظهورنا لصق معدنه. أردت

أن أمشي لكن حارسنا نهرني، فعدت إلى مكاني. كان الصمت ثقيلاً حتى أني سمعت بول الاستاذ يخر على التراب محترقاً رجلي بنطاله. قلت لهم: هذا بال في ثيابه ووسخ بدلته النظيفة. اقترب رجل الصليب الأحمر مني وقال اسكت الآن لا بأس. قال له الأستاذ هذا الرجل مجنون. كمّموه وربّطوه لأنه سيتسبب في قتلنا جميعاً. كانت الكلمات الخفيضة تخرج بالكاد من فمه لشدة ما كان فكه يرتجف. قال له رجل الصليب الأحمر، إهدأ، لا بأس.

رحت أهزّ رأسي أسفاً، وأضحك في صدري ضحكات صغيرة راحت تهز جسمي وبالكاد أستطيع تمالكها، فيما الاستاذ يردد: أبوس رجْليْك ارحمنا. ابوس يديك اشفق علينا...

سكت تماماً ورحت انتظر بصمت واحترام كالآخرين. اقترب مني رجل الصليب الأحمر، وتفحص يدي المربوطة بقماش نظيف. لم أتركه يلمسها. ابتعد عني ورحت اتفرج على الطبيعة، ولا أرى شيئاً في القمة الحالكة.

في الناحية الأخرى أناس مثلنا ينتظرون الآن. رحت أتساءل كيف سيبادلوننا بهم. ستكون هناك ساحة واسعة، مضاءة ومكشوفة لكي تكون الرؤية واضحة. لا بد وفي وسط هذه الساحة التي تشبه الملعب الكبير سيقف رجل مهيب. يجب أن يكون مهيباً ليؤمن به الجميع، هنا وهناك. يحمل هذا الرجل شيئاً، علماً مثلاً، يرفعه ويتلو اسماً من هنا واسماً من هناك، فيتقدم المعنيّان من الظلمة الى الضوء بتؤدة حتى يصلا إليه. سيقول لهما شيئاً لا أدري ما هو، ثم يتصافحان، لا بد. وإذ ذاك يصفر الرجل بصفارته المعلّقة على صدره، ويرفع علمه. في اللحظة نفسها، يركض الرجلان المعنيان بالتبادل،

كل في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي خرج منه في الظلمة، ويصلان في الوقت نفسه. كل الى أهله، ليتعانق الجميع... وهكذا دواليك حتى يتم تبادل جميع المخطوفين. ثم قلت، ينبغي أن يكون الرجل المهيب من الصليب الأحمر. لا بد. وربما الصليب الأحمر العالمي - أي الأجنبي - المحلّي، لمزيد من الصُدقيّة والموضوعية، ولكي لا يشك أحد بنزاهته. ولما تخيلت هذا الرجل وجدت اني أراه في لباس رياضي مناسب لبذلاتنا الرياضية ولكن مختلف عنها... ثم رحت أضحك...

سكت بعد أن نهروني وعدت الى صمتي. ثم حزنت لأني انتبهت الى أن صورة تبادل المخطوفين التي تخيلتها لا تلائمني لأنني لن استطيع الركض بجسمي هذا. وستزعل أسماء أختي كثيراً، وستقول في نفسها، ها هو يتأخر عن رفاقه كالعادة، كما كان دائماً وأينما كان، يتأخر عن الباقين... ويقع قبل خط النهاية.

ثم لعلع الرصاص.

يا إلهي. يا أمي، صرنا نصرخ. جذبني رجل الصليب الأحمر من ياقة سترتي. طرحني أرضاً، وظل يجرّني حتى صرنا جميعنا تحت الباص، وبين عجلاته.

راحت القذائف تنفجر ونحن نندسُّ ببعضنا البعض والرجل الأجنبي يقول: اوه شيت - أوه شيت - إيتس إمباسبول - أوه غاد.

وبعد أن هدأت الحرب أعادونا إلى الباص وقالوا فشلت عملية تبادل المخطوفين. قالوا ذلك في أجهزتهم بعد أن توقف الباص بنا. أنزلنا حراسنا بالخبيط واللبيط بعد أن ذهب رجال الصليب الأحمر... حشرونا في غرفة غير تلك التي كنا فيها.

طار عقلي حين أرادوا أن يستردوا البذلة الرياضية. قلت هذه ليست لكم. انها من الصليب الأحمر ولن أُعيدها، ورحت أتخابط معهم، حتى تركوها لي. خرجوا واقفلوا الأبواب والشبابيك وهم يشتموننا...

قال الاستاذ الجامعي وهو يبكي. كنت أعرف. الآن سوف يقتلوننا لأن ليس لدى جماعتنا مخطوفين. لقد صفّوهم. قتلوهم كلهم. أنا أعرف... يا ويلي... حين سمعناه يقول ذلك بانفعال صدّقناه... وراح بعض الرجال يبكي ويقولون: الآن سيقتلوننا معك حق...

لكنهم لم يقتلونا ما عدتُ أذكر أبداً كيف تم تبادل المخطوفين، وكيف بادلوني، ومن كان معي، ومتى، وفي أي وقت جرت العملية التي تكللت بالنجاح، لا بد. ذلك بسبب نسياناتي الكثيرة.

أفهموني اني في مستشفى «أرزة لبنان»، وأنهم أعادوني إلى أهلي بعدما خطفت وعُذّبت ثم بادلوني. وراحت أسماء من يومها تخبرني القصة وتكررها. كل مرة قصة جديدة وفي بالها اني كنت غائباً تماماً عما جرى لي... والجميعُ متفقون أن سهياني، ثم مرض عقلي هو نتيجة خطفي وتعذيبي. وتروح أسماء تروي لي مجدّداً...

|٧|

من غير المعقول ألّا يميل النبات ناحية الضوء، وألّا ينجذب إليه.

أروح وأجيء الى النافذة، لما أمامها ولما وراءها. لدائرة الضوء التي تقع على البلاط الأبيض، والفسحة التي يتركها لي الآخرون لأنهم لا يحبّون الضوء. قبل ذلك، كنت مثلهم. كان يؤذيني هذا البياض المبالغ فيه، والذي تعّززه الجدران والأرضيّات. تعزّز البياض إذ هي لا ترده ناشفاً هادئاً، ممتصةً إبره الكثيرة الطويلة النافذة حتى مؤخر الرؤوس، بل تعكسه ملتمعاً حاداً ومسنوناً. فالبلاط والجدران المدهونة بالبويا اللماعة التي يسهل غسلها، كانت تجعل الرؤوس نقاطاً حارقة لانعكاسات آلاف المرايا المتحركة المتذبذبة التي تحيط بنا. كنا مطاردين بالضوء والبياض، محاصرين به كالحيوانات المتوحشة في الفخاخ. لا نعرف له دواء لا بإغماض العيون، ولا

بادخال الرؤوس في الزوايا وتحت الأغطية. كنا مكشوفين لعنفه وأذّيته حتى في الليل، إذ يتركون الأنوار مضاءة. وحتّى حين تنقطع الكهرباء. كانوا يرفعون فوق رؤوسنا اللمبات الغازيّة الكبيرة. أو تلك الصغيرة جداً كذّرة دائمة الإشتعال والتي كانت تُغذّى بالبطاريات، ولم نكن نستطيع أن نحيد أعيننا عنها. كيف لم ينتبهوا إلى أن الضوء كان مصدر تعذيب دائم لنا، يُبقي اعصابنا مشحونة الى أقصى شعيراتها الفالتة كقساطل مثقوبة الطرف لا سبيل الى ضبط دفقها المكهرب. لسعة واحدة طويلة ولا تنتهي، لنلتصق بالزوايا نحشر عيوننا وأعضاءنا ما استطعنا، حتّى ننسلخ عن ملوستها ونقع عنها كالحلزونات المنتفخة المتخمة، ثم نعود الى المساحة الوسطية المكشوفة.

يعيينا الضوء حتى نستسلم له، وحتى يبدأ البؤبؤ في أعيننا دورانه الغريب في كل اتجاه بحثاً عن داخل العين المظلم. عيوننا فقط تواصل بحثها المضطرب عن كيفية هربها من الضوء والبياض، حتى من أبيضها نفسه، تتقّرح القزحية ويتنطط الجفن في موضعه، ووراء ستاره المالح الرطب، أو من دون ذلك الستار يواصل البؤبؤ دورانه وانشداده نحو داخل الرأس حيث العتمة الفاترة، تاركاً لضوء الخارج بياض العين الذي يتآلف معه.

كل شيء كان أبيض ومُضيئاً أكثر من احتمالنا. الجدران، البلاط، الأسرة، الشراشف، الطاولات، درف النوافذ، زجاج النوافذ، شَبَك النوافذ، النوافذ، الأطباء، الممرضون، الراهبات، أجنحة الراهبات، التي كانت ترفرف بطيئاً وهن يُمررّن على قطن الهواء الأبيض أحذية الراهبات التي نادراً ما كانت تترك لنا، وفي أوقات الحرّ الشديد فقط، أن ننظر إلى

عري أقدامهن والى شكل أصابع أقدامهن التي حفظناها في التواءاتها وتيبّسها عند العجائز وفي لينها وانتظامها اللطيف وطراوتها عند الأخت فانسان دو بول، القديسة الجميلة حتى أصابع قدميها.

أيام الشتاء كنا نرتاح قليلا، إذ تحنو السماء وتكفهر، وتنسحب من رؤوسنا تلك الإبر الدقيقة. وحين تمطر كنا نطرب لذلك الصوت الخارجي اللذيذ الذي يلف الابنية والتلة بكاملها، ونروح نتابع خشخشته اللطيفة على السطوح وأوراق الأشجار والنبات، وعلى أرض الممرات اللّماعة. حين تمطر كنا، لا بد، نذكر أصواتاً كنا نعرفها في الزمن الماضي، ودون أن نتبينّ مصادرها الحقيقية، كانت تحملنا الى غير ذلك المكان الذي نحن فيه. الى أمكنة كنا فيها صغاراً، تحت سقف شرفة على طريق مدرسة ما ومحافظنا الجلدية فوق رؤوسنا. أو قرب مدفأة بين اناس يعرفوننا ونعرفهم حتى يصير الكلام من حولنا لغط أصوات تنزل على جلودنا كالأغطية اللطيفة وننعس تحتها. حين تمطر، كنا نهدأ إذ تنقلنا الخشخشة اللطيفة الى أمكنة نعرفها دون أن نتبينها فنشم روائح أليفة تشبه مياه الحمام الدافئة التي تتبخر بتؤدة فوق رائحة كاز البوابير مرسلةً حشرجة لطيفة أمام باب حمام نغطي نافذته الوحيدة المطلّة على السهل بثيابنا الوسخة قبل أن تدلق امهاتنا المياه الساخنة على الأرض، كي لا تجفل أقدامنا من البرودة. أو كنا، على صوت المطر، نقف عند ابواب الأفران الدافئة ننقل الأرغفة الساخنة من يد الى يد ونحن ننظر الى السماء، نخاف أن يبتل الخبز الشهي ونحن نقضم منه ونحتار كيف نوصله قبل أن تلتصق فلقاته، وقبل أن ينطفىء بخاره الجميل.

نهدأ حين يخشخش المطر على السطوح، إذ نسمعه على

سطوح اخرى، بعد ظهر أحد ما، ونحن بين اولاد خالتنا نكر ضحكاً مكبوتاً ونختبئ تحت غطاء صوف كبير في عتمة انفاس افواهنا الكثيرة.

حين نسمع خشخشة المطر نقف في أمكنة بعيدة. نقف هنيهة قصيرة وبائدة، لكن دائماً في طفولة ما مضت لا نعرف منها سوى مفاجأة طعم بعيد تتركه في حلقنا، طعم يرجع سهلاً ولا يقيم. يرجع سهلاً، ويغيب سريعاً، ويتركنا في دهشة وحيرة من أجسام كبيرة نجدها أمامنا، كأن فجأة، ولا نعرف لها وظيفة أو استعمالاً. اجسام لا نألفها حتى نقدر على تطويعها. تغيب عنا، وننساها لنعود ونجدها أكثر هرمًا وابتعادًا وغرابة. وأكثر صعوبة، حتى في ضعفها واستسلامها، على التطويع والتدجين والتبني. فننفر منها، إذ ندرك ابتعادها المستمر عمّا كانته حين كنا، في طفولة ما. نسمع خشخشة المطر على الأشجار والسطوح وعلى الطرقات اللماعة.

أقف قرب النافذة لأنني ما عدت مثلهم. كي أبتعد عنهم وانساهم وأنسى كم أني أشبههم. لأنسى اشتباك جسمي في أجسامهم وضياعه فيها. في كثرتهم وخوفهم من البياض وفي انخراطهم وامتثالهم وفي مثولهم أمام غضب الرب كماشية انزل فيها قصاصه. أنزل فيها شكله الناقص. كماشية من الخراف الضّالة التي انتقاها على مهل وأفردها إفراد البعر المعبّدة، ولم يسعَ الى استعادتها الى قطيعه المبارك الذي يبرطع خارجاً والذي يرتع في النعمة المسبغة عليه،يرتع في الغفران وفي محو الأخطاء ونسيانها ورحمتها.

هؤلاء الذين في الخارج كانوا الأبرار الذين يفعلون ما يطلبه منهم الرب ويطيعونه في السلم كما في الحروب الأهلية. لم

يكن يضجر منهم ولم يكن يقول انه حصتنا، نحن النعاج الضالة. لم يكن رجاءنا. كنا القصاص الذي زهد فيه، ضجر من أصفره العليل وأعضائه الضعيفة المسلولة ومن هذيانه وتقرحاته، وضرب رأسه في الحائط، وجعيره في الليل كذئب كريه يضرب صوت عوائه سهر إلفة وعشق. وهم، هم في الخارج، النعاج المباركة، ظلوا اكثر تسلية منا. أكثر حركة وضجيجاً وتغيّراً فغيّر الرب رأيه ومعسكره وجلس معهم، بينهم، كأب... وتركنا، تركنا لجسومنا ولذلك الأبيض المضيء ينزل فينا من غضبه ومقته.

لذلك، عندما خرجت لم يطل بي الأمر حتى عدت إلى هنا.

ثم عرفت ان الرب لم يتخلَّ عني.

|٨|

أقف أمام النافذة، لما أمامها ولما وراءها.

لذلك الضوء الذي يشد اوصالي الى الحرارة والنقاء، والى حيث استطيع أن اتابع الغبار الساري في عضو الحزمة المنفلشة على الأرض حيث أضع قدمي الحافيتين لتدفآ ولأتأملهما لساعات طوال. لألاعب أصابع قدمي وأعبث بالأظافر وبالجلد الأبيض المتكّلس حولها وعليها. لتكون تلك المساحة لي وحدي، ولأوقن، وأنا فيها، بأني لم أعد مثل الباقين الذين في الغرفة، في زواياها أو على الأسرة أو تحتها.

حين اسمع خشخشة المطر، أقف وأنظر. أقف إلى النافذة أسند رأسي الى حديدها المشبك الذي يحمينا من الزجاج ونصوله. الزجاج الذي يتركني أرى، ولا يمزجني بما أرى. أطل على الحديقة التي يقطعها لي الشبك الحديدي الأبيض الى مربعات كبيرة، كما حين كنت أفعل ليسهل عليّ رسم خارطة

الجغرافيا، ولكي أحافظ على المساحات مضبوطة صحيحة. اقطع الحديقة الى مربعات، وأتابع تفرجي عليها قطعة قطعة. حتى تنطلق عصافير جميلة بين الأشجار المبتلة، فأتابع طيرانها. أو حتى أخرج فجأة من المربع إلى المساحة كلّها، إذ هكذا يحدث لي أحياناً عندما أراها.

أراها جالسة في الحديقة. على الأرض تحت شمس ساطعة. جالسة هكذا لا تتحرك ولا تفعل شيئاً. أنسى أنها ميتة. أنسى ذلك تماماً. أو أني لا أعرف أنها ماتت. أظل انظر إليها وانتظر. انتظر حتى تلتفت نحوي، حتى تعرف اني هنا أو حتى تقول شيئاً. ثم انتظر أن تتحرّك لأرى ماذا ستفعل حين تتحرك. ثم أنسى انها أمامي واني اتابعها من وراء النافذة. ثم أتذكر وأراها، وتستمر هي في سكونها. فاضجر وأعود عن النافذة وأقول لنفسي أنها صورة أراها. صورة غير حقيقية. وأعود الى النافذة فلا أراها. ارى المربعات البيضاء والمطر. أو أراها تحت الشمس الساطعة ما زالت هناك. ولا تتحرك. إن حزنت لا أحزن كثيراً وإن فرحت نسيت أحياناً فرحي. لا ابتئس حين أرى تلك المرأة في الحديقة وراء النافذة، ولا أفرح وأهلل لرؤيتها بعد زمن. فقط أحتار وارتبك. احتار وارتبك أين أضع تلك المرأة في داخلي وهي هكذا مقيمة جامدة أمام النافذة. وأين أضعها في داخلي. في أي منطقة أفرد لها. في الفرح أم الحزن. في الذكرى أم في النسيان. في الرغبة أم في الضجر. في الشوق أم في ملل التكرار. تكرارها. تكرارها. تكرارها علي.

غالباً ما كنت، حين يطول قعودها في الخارج دون حراك. غالباً ما كنت أبكي. أبكي طويلاً وعالياً ولم أكن أبداً أدري أهو بكاء من العذاب والقهر أم من السعادة العارمة.

الفصل الثاني

|١|

رأيتها عند بائع الخضار قريبي في ساحة القرية.

أرتج صدري بقوة وقلت: مستحيل. هذه امرأة تشبهها. كنت على الرصيف المقابل وبعيداً عنها. رجعت إلى الوراء متستّراً بالمارة أردد: هذه امرأة تشبهها. ثم رحت أتقدم ببطء خشية أن تراني، لكنها كانت منهمكة تماماً. صرت على مقربة منها بعد أن تأكدت أن السيارة التي بيننا تحجبني عنها تماماً حتى لو استدارت تنظر في كل الاتجاهات.

كانت منهمكة بملء أكياس كثيرة بالخضار والفاكهة. ابتسمتْ للنساء اللواتي كن يشاركنها التقليب في صندوق واحد وتبادلت معهن أحاديث قصيرة. نظرتْ إلى يديها المتسختين، مسحتهما بكيس ورق. تحدثتْ الى قريبي بائع الخضار بمرح ظاهر. ساومته قليلاً، ثم دفعتْ. رفع أكياسها الكثيرة الى صندوق سيارة صغيرة. صعدت الى السيارة

وضعتْ نظارات شمسية. تلفتتْ كثيراً قبل أن تخرج بسيارتها في زحمة السوق. وغابتْ.

لم أسأل قريبي بائع الخضار عنها. كان سيطرح الكثير من الأسئلة. أقول له إنها كانت صديقتي في الجامعة. فيحدّثها إذن عني. هكذا لطق الحنك. يقول لها أتعرفين... صديقك في الجامعة هو قريبي. فلان الفلاني. ويدلّها عليّ حين يراني على مقربة من دكانه. أو يلحظ أني أرقبها من بعيد ولا أتقدّم للكلام معها.

لم أسأل قريبي بائع الخضار عنها لأني عرفت أنها تتردّد على دكانه دائماً. هذا واضح. ثم لم اكن واثقاً من أني أريد أن أكلمها أو أن أراها ثانية.

في اليومين التاليين لم تتوقف عن الرواح والمجيء داخل رأسي. أفاجىء نفسي متبسماً ببلاهة. ساهياً على فراغ وهشاشة. متبطلاً متردداً عن الإجابة على أي سؤال. تسألني اسماء هل تريد قهوة فأفكر طويلاً قبل أن أجيب. افكر طويلاً إذا ما كنت ارغب في تناول القهوة. ثم اعود الى الحديث مع زوار انتبه فجأة لوجودهم بقربي مبتسمين تحت دالية بيتنا. ابذل جهداً حقيقياً للدخول في الحديث. ذلك الحديث الذي يتجاذب اطرافه زوارنا تحت دالية المصطبة. ذلك الحديث الذي يروح ويجيء في مكانه، بين أرجلنا وفوق رؤوسنا تحت الدالية. يروح ويجيء ويتمطّى ويردّ إلي ذلك الشعور العميق الذي يلازمني منذ كنت طفلاً، بأني كائن خرافي. لأني غير موجود بينهم لشدّ طرف الحديث الذي يخصّني، الطرف الممدود صوبي. لأني حين أكون بينهم، لا أكون بينهم بل على حدة. اتطلع الى ما لا يتطلعون إليه: أتطلع إليهم. أتطلع إليهم ولا أكف عن التساؤل لماذا أتوا. لماذا يأتي الزوار. ولا

أقتنع أن الزيارة تجعلهم أقل ضجراً. كنت دائماً أحب أن أرى زواراً في بيتنا، لكني لم أكن أحب أن أشارك في الحديث. حين كنتُ صبياً، كنتُ ادخل وأخرج بين الزوار، فلا ينتبهون إليّ. أفرح بهم إذ ينصرف الجميع عن الجميع وأفعل ما يحلو لي. أجد بيتنا أكثر جمالاً وترتيباً. وكذلك أهلي أكثر مودة ولطفاً وتساهلاً وتهذيباً. وبين الجميع طاولات صغيرة، عليها صحون فاكهة جميلة وفناجين قهوة وعلب سجائر ملونة. حلوى أو ملبس أو بزورات طازجة على مفارش منشّاة لا نبقيها على الطاولات بعد خروجهم. عيد صغير لست معنياً به، وأطايب سيبقى منها الكثير لأتذوقها على مهلي، في المناديل الورقية، ولاطعم منها أصحابي وأتباهى، لكني كبرت وصار ينبغي علي أن أجلس مع الزوار. كبرت فصار لي طرف آخذ به الحديث، لا بد. طرف لي، لا أحد يأخذه عني أو يسايرني بإهماله أو تناسيه.

في اليومين التاليين لم تتوقف عن الرواح والمجيء داخل رأسي. صرت أقول أنه الضجر، إذ لم تكن تلك المرأة يوماً مهمة في حياتي. في لقاءاتنا الأخيرة كنت أشعر أنني اتخفف منها بسهولة تقارب الجذل. اشعر اني اتخلص من ثقل لم يكن له أي مبرر. صرت ارى انها ليست جميلة ولا تستأهل حتى الجهد الذي تتطلبه مغامرة صغيرة عابرة. وهي ليست ذكية لتمنحني متعة اللعب والمناورة وليست شهية لتحفزني على احتمال غلاظتها ودبقها وتخلّفها العقلي والعصبي وهي تستعمل الكلمات الكبيرة المهمة والأدبية لكائن يعتبر نفسه مثقفاً وأمام مرحلة دقيقة ومهمة. سوف يتذكرها كثيراً. ولذا فان رصف الكلمات في الجمل يجب أن يأتي فريداً شديد التأثير.

أذكر أني كنت أستمع الى القليل مما تقول وأنا أتأملها مُظهراً الحزن أو التفهم أو الاثنين معاً. كنت متأكداً أني لن أراها ثانية حتى أني، بدل أن اضحك وأصفق عالياً، رحت أرجوها، تقريباً أرجوها، ألاّ تتخلّى عني. رحت أُفهمها، أوحي لها بأني متألم لأني مغرم بها غراماً شديداً، لكني مستسلم لقدر قراراتها لأن كل ما في الحياة يدعوني إلى اليأس الشامل. ما كان يدعوني إلى اللعب، إلى الكذب عليها، هو ضجري منها، واحتقار صغير لكل الكائن الذي فيها، والذي قبالتي، كان يرسم لوحة أهميته وثقله الأقصيين. كنت أقول هذه المرأة البائسة لن تُعطى فرصة اخرى كهذه للشعور باهميتها. كنت أمنحها هذه الفرصة لا شفقة عليها، ولكن ادراكاً مني بأنها ابداً لا تستأهل أن أُخرج امامها ما هو بداخلي، أن أتركها ترى حقيقة ما يخطر برأسي. لأنها لن تفهم منه شيئاً. لأن رأسها الصغير، الواضح الجوانب كعلبة كبريت، سيقول لها اني حقود. وأن كرامتي الرجولية تأبى القبول بأن تتركني امرأة. لو كنت مغرماً بها لكان الأمر دراما حقيقية. هكذا كنت أردد في نفسي وهي قبالتي تتغرغر بدمع تروح تبتلعه عن قصد مكشوف. كنت اقول يا إلهي أي تعاسة كانت ستركبني لو كنت فعلاً مغرماً بهذه المرأة المسكينة. كانت ترصف الكلمات وهي تعي انها للذكرى. للخلود. ترى نفسها وتراني أنا، كهلاً، استرجعها بحسرة كبيرة، وأردد انها المرأة التي لم استطع نسيانها. الوحيدة بين النساء. انظر إليها وأقول: كل النساء يتحركن في فيلم، دائماً في لحظته القصوى. في لحظة الى الأبد. التي ستدوم الى الكهولة. الى كهولتي أنا بالذات. كهولة البطل. كانت ترصف الكلمات وتترك فراغاً ليطبعها في ذاكرتي. تنتقيها للمرأة الأخرى، للبطلة، كل لحظات الوداع

تعكس لحظة وحيدة وتردّ إليها. لحظة وداع واحدة عمومية. للجميع. وتتشابه في كل الأفلام. ونستجمعها ونسوّيها مهما كانت موزّعة. نرى أنفسنا على شاشة كبيرة. نضيء بأحزاننا. تخرج أصواتنا من مكان كبير قبالتنا، من زمن الذكرى الآتية الواسع. نسمع أصواتنا آتية إلينا من حزننا ومن أسانا المقبلين لا محالة. نسمعها off متحوّلة ومتغيّرة عبر الأشرطة الكثيرة الطويلة التي ستعبر في شعيراتها الدقيقة ثم تنفلش. اللحظة الوحيدة للوداع لأننا نزدوج. نرى أنفسنا الآن ونرى الحزن على أنفسنا. تلك الشفقة المقرونة بشجاعة وستويسية الخالدين. ستويسية زينون الرواقي... نتمشى معه في الرواق الطويل الذي يسمع وقع اقدامنا، ويشهد لرباطة جأشنا، ونحن نقترب من آخر الرواق. أنا وهي وزينون في الرواق. ومعنا جميع الابطال في فيلم الوداع الوحيد. ومعنا الغرام في حشرجاته الأخيرة.

كنت أفكر في كل هذا وهي أمامي. أهزّ رأسي أسفاً وحزناً وتفهماً واتساءل كيف يمكن أن أُسمعها عالياً ما أفكر فيه. وهي تنكّس رأسها الصغير اللطيف كسارية مكسورة في أمواج عاتية. أمواج عاتية في وعاء وعاء الطاولة التي بيننا.

كنت اعرف جيداً انها تكذب. لعلّ هذا هو السبب الحقيقي. كل لحظات الوداع كاذبة كهذه، إذ هي في أحد احتمالين: إما أنها لا تحبني. لم تحبّني، أو أنها هكذا، لسبب ما أو بدون سبب كفّت عن حبي. وإذ ذاك تتركب لحظة الفراق، أو الوداع، على عنصرين، شخصين: واحد يريد أن يتخلص من الآخر مفترضاً بالطبع أن هذا الآخر سميك الإحساس لدرجة انه لم يشعر بأن الأول كف عن حبه، وينبغي إذن إفهامه ذلك بصريح العبارة، وبما أني أنا الآخر

الذي يُفترض التخلص منه فأني أقوم بدوري بأقل ضجيج ممكن ولأختصار الشكليات. أبدو مغرماً وحزيناً، بائساً مستسلماً، فتحتفظ مني بصورة طيبة وبأثر لطيف ومحايد، وإذن سريع التبخّر، فلا تنجح في ترسيم لحظتها الأبدية الأدبية الخالدة... والإحتمال الثاني هو انها تحبني لكنها تحتاج لشعائر لحظة الوداع لكي تعطي أهمية أكبر لمشاعرها. لتستدعي إنتباهي إليها. لتقول لي بأني لا أحبها كفاية. لتهدّدني بتركي. لتجعلني استطعم الحزن الذي سأكابده لا محالة إن هي تركتني. هذا الوداع الثاني يكون كذلك كاذباً إذن لأنه لاسترجاع لا لانفكاك، ولوصل لا لقطع. يكون للمزيد. للأقوى للأكثر. لأقول للآخر تمّسك بي ولا تتركني. إعْلم أن حضوري ليس بدهياً. تذكر أني لست أنت. إني شخص آخر وقد انفصل عنك، واتركك مقطوعاً. ناقصاً. هذا الوداع يقول احبني اكثر. امنعني من الذهاب. إلغ هذه الإمكانية.

كل لحظات الوداع كاذبة، إذ هي تقع في واحد من الاحتمالين الاثنين. الذين يريدون الذهاب والقطع لا يلتقون ولا يتكلمون. لا يقدّمون أعذاراً ولا يتركون فراغاً بين جملهم المتقنة. يسعون الى النيسان والفوات لا الى الترميز والتخليد.

فيما انظر إليها تنظر الى نفسها وإليّ وإلى اللحظة الخالدة، كنت أعرف أني لن أستردّها. كنت أشك في الاحتمال الأول، في أن تكون غير مغرمة بي، وأن كل ما ترغب فيه هو التخلّص مني. التخلص مني والانصراف الى سواي. رجّحت الاحتمال الثاني. الوداع كدعوة لمزيد من الغرام وللتمسك بها. قلت في كلا الحالتين. أشعر بضجر منها، عميق وكبير. وبالطبع لن أستردها. سأختفي قليلاً كمن يختفي لينزوي بأحزانه ويُفْرِدُ لها، كمن يزهد بالعيش ويرتد عن الناس. بعد

ذلك أظهر لها وأجعلها تراني دون أن احاول استردادها أجعلها تراني حزيناً في غرامي، لكن مقتنعاً بقرارها ان تودعني وتتركني. وبأن الموضوع قد انتهى الى الاحتفاظ بالذكريات العزيزة. سترى أني ابداً لن أحاول استرضاءها أو استنباط الطرق والحجج لإرجاع الزمن المفقود. هكذا سأكون حزيناً ولكن بارداً وبلا اللهفة التي اعتادتها مني. والتي لا بد تراهن عليها. . . وبعد فترة سأجعلها تراني مع أخريات. سأساعدها على الاعتقاد بأني أسعى الى السلوى، الى التلهي بقشور الأخريات، لأني مكفوف ومردود عن المرأة في جوهرها. عن المرأة، المرأة التي هي. ثم سأروح شيئاً فشيئاً استمتع قليلاً بقشور الحياة تلك. استمتع قليلاً جداً، ولكن استمتع. وأحاول ان أعطيها شيئاً فشيئاً، لكن نهائياً، المكان الذي اختارته. أحاول أن أضعها الى غير رجعة في الإطار الجميل الذي رسمته بأناملها الفنّانة. سأجعلها ترى أن محاولاتي قد نجحت وأني قد وضعتها في الفيلم الخالد.

كنت أفكر في كل هذا. وكنت أفكر في كيفية الانصراف سريعاً دون أن أكسر الإيقاع، لذا لم أكن أسمع تماماً جملها المرصوفة. كنت أجد في عنايتها بجملها شيئاً كالوقاحة. كأن المنطق أقوى مني. كانت منطقية. أو تبدو جملها كذلك، وكأنني لست أمامها ولا أنظر في عينيها. كانت محصنة بذلك المنطق ضدي. قوية به كأن جسدي ليس موجوداً، بكامل عدّته المثيرة، على طرف الطاولة.

لم أكن اسمع ما تقول. كنت فقط ارغب في الانصراف لكني أبقيت على هدوئي. تفحصت هدوئي، وجدته مرضياً فقلت سأكون أكثر هدوءاً إذ ليس هناك ما يستدعي نفاد الصبر. وحين كنت أنتبه إلى أنها تنتظر مني إجابة أو تعليقاً،

كنت ابتسم وأهزّ رأسي أسفاً، وأقول أي كلام يفيد بأن وضعي سيئ. بأن وضعي سيئ جداً... وفي وقت ما خطر لي أن أضحك وأن ألكز كتفها لتضحك معي مما نحن واضعين أنفسنا فيه بمتعة كبيرة أي في «بوزات» المواقف الجدية الخطيرة التي تبدو كأنها ضرورة مفروضة علينا. خطر لي أن اقول لها هيا بنا يا بنت... إننا لا نلهو كفاية، ولا نفكر في الوقت الذي يضيع... إننا فعلاً ثقلاء وتافهون في إقناعنا أنفسنا بأننا عناصر جدية مكونة لتاريخ حقيقي وعظيم، بأننا لسنا أقل من روافد هادرة تصب كل لحظة في النهر الانساني الأزلي الأبدي الهادر الذي يخترق الزمن. كل هذا كذب صغير، تفنيص... وأنا بالكاد مقتنع بأني موجود.

خطر لي أن أضحك لها من كل قلبي. أن أقبلها على وجنتها وأشد على يدها مصافحاً صارخاً: سيري فعين الله ترعاك. ليس لأحد عند أحد شيء. بسيطة يا أختي، لا كدّر الله لك وجهاً. لكنها كانت شديدة الاقتناع بما هي فيه. بما نحن فيه. ولأنها هي التي تودعني، ينبغي أن تكون هي من يختار اللحظة البليغة التي تنهي لقاء الوداع، وكذلك عملية إخراجها... هكذا لملمتْ حوائجها عن الطاولة، وقالت بصوت خفيض. أنها لا تستطيع أن تتأخر أكثر. وقفتُ صامتاً، ثم عرضتُ عليها أن أوصلها الى بيتها. وبالطبع رفضت شهامتي وقالت ان ليس هناك ما يستوجب تعبي لأن الأحوال رائقة والأجواء هادئة تماماً. والبيت بعيد. بالفعل، قلت في نفسي كم بيتها بعيد، وكم تكبدت عناء مرافقتها ليلاً الى بيتها البعيد... ثم إلى الحافّة المسموح لي بأن أصل اليها على طريق بيتها البعيد حين ازداد بعداً. ثم ازداد بعداً.

خرجت بخطى بطيئة حتى لا أحسب أنها تستعجل الخلاص

مني. . . أو بغية أن أستوقفها. أن آخذ يدها، التي تركتها فارغة متبطلّة، فأشدّها منها، وأغمرها بقوة وأقول لها: هذا هراء، أراكِ غداً وأضحك، وتضحك وهي تبكي ووجهها قرب وجهي. أو لآخذها من يدها الى سيارة التاكسي ثم الى بيت سمعان وانام معها وننسى قرارات الفراق. . . لكنني لم أفعل شيئاً من هذا لأنني لم أكن أرغب فيها. لم أكن أرغب سوى في التوقف عن رؤيتها أمامي وعن سماع صوتها في أذني.

لن أراكِ ثانية إذن. سألتُها بما يتناسب والدرامية المطلوبة للظرف، فقالت بلى. بالطبع سنلتقي فنحن صديقان. نحن صديقان. كيف كان ممكناً أن ننصرف كلٌّ إلى حال سبيله دون أن تختم المشهد بألفاظ أكثر ملاءمةً. أو أكثر دلالةً على حدود ومقاسات الكائن الصغير المسطّح في رأسها اللطيف، رأسها العالق بأشرطة الأفلام. يا لحظّي!

نحن صديقان، رحت أردد في نفسي بعد أن تركتها. ساخراً من نفسي أو بي ما يشبه الحنق عليها. نظرت في ساعتي وقلت سأذهب إلى لمياء ذات الثديين الكبيرين، فأنا ولمياء صديقان أيضاً. إننا صديقان حقاً. سأقول لها يا لمياء نحن صديقان. وأنا أضعت الكثير من وقتي حين ابتعدت عن ثدييك الكبيرين. ولو أني لم أهجرهما. ثم قلت مالي والنساء. فلأذهب الى بيتي وأنام. لكني لم أكن نعسان، وخطر لي أن أرتّب سهرة عارمة أرى فيها الشباب اصحابي ونضحك ونشرب. عرّجت على بيت سمعان القريب، لكنه كان وحيداً والكهرباء مقطوعة، كذلك خط الهاتف، فلم نستطع الاتصال بأحد. لم أطل القعود عنده لثقل جوّه الكئيب، الذي لم يكن يتلاءم أبداً ومزاجي الحار والمتطاير.

في الطريق الى بيتي عاودني الإحساس بالحنق وأنا أتساءل

كيف امضيت وقتاً، لم أكن أنتبه فيه إلى سخافة هذه المخلوقة وقصورها... تذكرت كذلك أنها هي التي اختارت ان نجلس في ذلك المقهى الذي تزين جدرانه رسوم لقلعة بعلبك ولأشجار الأرز الضخمة، مرصوفة بالأصداف الصغيرة البائرة، فتوجست من غروري وأحزنني أن أضطر للأعتراف بأنها لو كانت مغرمة بي حقاً لاختارت مكاناً أكثر أنساً ودفئاً، وأقل عموميةً وتنفيراً من ذلك المكان البشع الذي يصعب جداً أن تختاره امرأة لتودّع فيه حبيبها. فالنساء يهتممن كثيراً بالأجواء، وبإيحاءات الأمكنة. ثم قلت لنفسي على أيّ حال، خلصت منها.

بعد ذلك بأيام تذكرت العهد الذي قطعته على نفسي بأن أجعلها تراني من بعيد. تراني وترى أني لا أحاول أن أتشبث بها أو أن أعيد الأمور الى الزمن المفقود... وحين ذهبتُ لتنفيذ خطتي وجدتُ أنها صارت في المرحلة الثانية من خطّتي نفسها. رأيتها تتجه الى سيارة فيها شاب أنيق ينتظرها. رأيتها هي التي تسعى إلى قشور الحياة محاولةً أن تنساني. الفرق هو أنها لم تكن تعرف أني هناك. لم تكن تقصد ان تجعلني أراها. هذا هو الفرق.

لكني لم أشعر بالمهانة ولا بالغضب أو الخيبة. كدت أضحك. حاولتُ أن اتذكّر الأسباب التي رصفتُها في جمل الوداع، فلم أتذكر شيئاً. لم اتذكر سوى امرأة متوسطة الجمال والذكاء وسوى نعمة كونها كذلك. إذ ماذا لو كانت جميلة أو ذكية أو شهية، تلك المرأة التي ودعتني في ذلك المقهى المزدانة جدرانه برسوم مرصوفة كالجمل، بالاصداف الصغيرة البائرة، في ذلك المساء الذي كان يخيّم عليه سلام البلاد، منذ سنوات طويلة.

|٢|

لكنني بعد أيام وجدت نفسي أكثر من الذهاب والمجيء أمام دكان قريبي بائع الخضار. أكثر من التفكير فيها مدفوعاً بحشرية كبيرة لمعرفة ما حلّ بها. . .

ليس فقط ما حل بها، إذ لم يطل الأمر بي حتى انتبهت إلى أني لا أذكر الكثير عنها. فوجئت حين ادركت أني مثلاً لا أذكر تفاصيل بل صوراً بخطوط عريضة، اخلط فيها بينها وبين أخريات. لم أعد أذكر تماماً، مثلاً إذا ما كنت أنام معها أم أن الأمور كانت تقتصر على القبل وبعض الملامسة. أرى أحياناً ثديين لها، ثم أتذكر أنهما لأخرى. ليست السنوات التي مرّت كافية لأن أنسى لهذه الدرجة، خاصة وأنها هي التي قررت أن تتركني لتستقر بين أهلها وناسها.

وربما لست أملك وقتاً كثيراً. فهي لا بدّ تسكن في قرية قريبة كأكثر الوافدين في انتظار توقف المعارك في العاصمة أكثر

منه لقضاء الصيف. حشريتي كانت تزداد، وأنا استجمع في كل مرة اراها فيها من بعيد، ودون أن تراني، أستجمع أقساماً صغيرة منها. شعرها كان قصيراً وأكثر دكنة... أظافرها كانت قصيرة كذلك وغير مطلية. لكني لم استرجع شيئاً من جسد عار. لم أفهم كيف يحصل هذا لي. مستحيل أن أكون استخففت أمرها الى هذه الدرجة. مستحيل. فأنا ما زلت اذكر بالتفصيل كيف ضاجعت الأرتيست الطليانية وأنا سكران مطفي... وأذكر تماماً عري تلك الأرتيست والشامة السوداء على كتفها الأيسر... ربما لأنها الطليانية الوحيدة... أو الأرتيست الوحيدة...

كانت تأتيني عنها صور صغيرة تافهة لا تفيد. تذكرت مثلاً حقيبة يدها التي كان قفلها معطلاً دائماً. تذكرت كذلك سناً أمامية مكسورة قليلاً في فم يضحك قريباً من فمي. كانت ترافقني الى بيت سمعان القريب، وكنت أقبلها لكن ما الذي كان يحصل تماماً حينها، ظلّ السؤال يلحّ عليّ ويحيّرني، ويحيّرني إلحاحه علي حتى قررت أن أكلمها. أن اقترب منها وأكلمها.

كأنها لم تفاجأ مطلقاً. سلّمت عليّ بحرارة كبيرة وهي تكرر اسمي. احمرت وجنتاها قليلاً، لكنها لم تكن مرتبكة. قالت أنها مع زوجها في قريته القريبة هرباً من القصف على الساحل. وتتبضع دائماً من سوق قريتنا لأنه أكبر، وأسعاره أرخص. انظر هذه الفواكه الجميلة قالت و أنا أساعدها في حمل الأكياس الى صندوق سيارتها. ثم أقف قربها حائراً. صدفة جميلة جداً قالت وهي تمدّ كفها لتصافحني...

في المرة التالية كانت أقل فرحاً برؤيتي. كأن ذلك كان طبيعياً، أن نلتقي حيث التقينا سابقاً. ساعدتها في حمل

الأكياس، ولما لم أجد ما أقول طلبت إليها أن نجلس قليلاً. في مكان ما ونتكلم. اعتذرتْ قبل أن أتمَّ جملتي. لأنها مستعجلة اليوم، ربما في المرة المقبلة، لم لا، قالت سنجلس في مكان ما، نشرب القهوة ونتكلّم. ومدّت يدها لتصافحني.

المرة المقبلة تلك، التي لم تعينّ لها يوماً محدداً، كانت في النهار نفسه من الأسبوع التالي. كان ذلك منطقياً. لكنني لم أقترب لملاقاتها. ظللت أرقبها من بعيد. ساعدها قريبي في رفع الأكياس إلى صندوق السيارة. دفعتْ ثم راحت تتلفتْ باحثةً عني.

في الأسبوع الذي تلاه لم تأتِ لأن حوادث وقعت على الطريق بين القريتين فأقفلتها. وفي الأسبوع الذي تلا كانت هناك. لم أقترب. لم تلتفت باحثة عني بعد أن دفعت ورتبت الأكياس في صندوق السيارة، لكنها عادت تملأ ببطء أكياساً جديدة. كأنها نسيت أن تستكمل لائحة مشترياتها. عرفتُ أنها تُطيل فترة مكوثها في الدكان علّني أصل ولو متأخراً، فلم أقترب. وبعد أن ذهبتْ لم أفهم لماذا لم أقترب منها، لماذا فضلت أن أراها هكذا، من بعيد. خاصة بعد أن عرفت أو تهيأ لي، أنها تتلكأ علّني أصل.

لكنني كنت أفكر فيها. لا أجد شيئاً محدداً أنصرف الى التأمل فيه، لكنني اشعر بها قريبة مني. هكذا موجودة بجانبي وكفى. شيء لا يبعث على الحزن أو على الفرح لكن موجود. يروح، ثم يعود، ثم يستقر في مكانه. في الهواء. لم يعد يحيرني أني لا أسترجع كيف كانت علاقتي بها. لا أسترجع جسمها ولا استطيع الذهاب أبعد من يقيني بأني كنت أقّبلها. ذلك اليقين الذي رسخ فّي حين اقتربتُ من وجهها في السوق. لم يعد يحيّرني هذا لأن شعوري بملازمتها الباردة تلك لي.

وإحجامي عن الاقتراب منها، وتفضيلي رؤيتها عن بعد ومن دون ان تشعر، صار هو ما يحيّرني.

ثم وجدت أني أحسنتُ فعلاً، لأني لا أريد الإقتراب منها مجدداً. أحسنتُ فعلاً. إذ ما الذي كنّا سنتحدث فيه ونحن نشرب القهوة معاً. وأين كنت سأجد مكاناً أُجلسها فيه وأجلس قربها...

وذات صباح وجدت نفسي جالساً في سريري عند الفجر، عيناي مبحلقتان ووجهها قبالة وجهي. وجهها قبالة وجهي. كنت مستيقظاً تماماً، كأنْ منذ ساعات. تحيّرت كثيراً ممّا يحدث لي. غسلت وجهي وخرجت الى المصطبة.

حاراً كان ذلك الصيف لكنني التففت بغطاء سريري القطني. فساعات الفجر في قرانا العالية باردة دائماً. كان غبش فجر الصيف في الجبال القريبة لا يحجب سطوح القرى. رحت أقلب نظري بين بيوت القرية القريبة الصغيرة. وأحاول أن أخمن في أي بيت تراها تكون، وكيف هي الآن نائمة، في سلام هذا الفجر وبرودته اللطيفة، الى جانب زوجها.

|٣|

الآن، وأنا مغمض العينين أتنفس ببطء، رائحة رقبتها، أعرف أنه لم يكن من ما حصل بدّ. الآن بعد أن انقضى زمن على وجودها معي، وهدأتْ دهشتي الكبيرة. دهشتي من وجودها أمامي ودهشتي أيضاً من السرعة التي جرت فيها الأمور.

كان ذلك قبل ظهر يوم أحد. مرّ بي أحد الشبان من جيراننا وشرب القهوة معي. كان حائراً في أمره فهو مضطر للنزول إلى العاصمة وليس في سيارته ما يكفي من الوقود. كان البنزين مقطوعاً، لكنه سمع أن محطة في طرف مدخل قريتنا، قد يصلها صهريج قبيل الظهر، وطلب مني أن نذهب معاً في سيارته وننتظر امام المحطة. . . بينما كنا ننتظر، رأيتها تمّر بسيارتها باتجاه قريتها. قلت لصديقي هيّا بنا الى القرية القريبة، فمن المؤكد أن في محطّاتها بنزيناً، لكنه لم يجرؤ وقال:

مستحيل، قد يخطفوننا، أو أننا سنتبهدل في أحسن الحالات. فنحن لسنا نساء، وسيتعرفون علينا لا محالة. ثم سمعنا دويّ الإنفجارات. رأينا دخان القذائف المتساقطة قريباً منا في الوادي. أدار صديقي محرّك سيارته لنهرب لكنه كان ينطفىء قبل أن تقلع. نزلنا من السيارة لنختبىء وراء جدران المحطة ونحن نعلم خطورة إنفجارها لدى أول شظيّة... ثم رأيتها تعود بسيارتها بإتجاه قريتنا. لحقتُ بها صارخاً، فتوقفتْ. صعدتُ الى جانبها. ثم صرنا نرى القذائف تنزل على الطريق، بعيداً أمامنا. نزلنا من السيارة، واخذنا نتسلق الغاب على يمين الطريق لنحتمي بالصخور العالية. كنت أجرّها من يدها جرّاً لأنها كانت خائفة جداً، ولا تعرف الى أين أتجه بها. كانت تردّد: لكن، ما الذي جرى.

هبط الليل وكنا لا نزال نحتمي بصخرة عالية. كنا نرى القذائف الحمراء تشتبك في السماء قبل أن تنصبّ على القريتين وجوارهما. ثم وجدت أني احضنها تماماً، وأن رأسها في صدري وحَدَستُ أنه ليس الخوف وحده.

هدأ القصف تماماً عند طلوع الفجر. ظننت أنها نائمة فلم أبعدها عني للتحقق من ذلك. كنت اتحسس تنفسها المنتظم على كامل جسمي ولا أعي ما أنا فيه.

حين وقفتْ تنظر الى السماء ثم إليّ، كنت أعتقد أنها ستتوجّه الى الطريق، الى حيث سيارتها لتعود الى بيتها. لكنّها عادت وجلست بجانبي... فكرت أن أعود بها إلى بيتي لكنني لم أفعل. ثم سمعنا أصوات سيارات عسكرية وشاحنات، وزعيقاً ورصاصاً. عرفت أننا لن نستطيع أختراق الحواجز التي أقاموها على الطريق. لن يتركونا نعبر الآن في هذا الوقت الهستيري. لن يدعونا نمر، لا في هذا الاتجاه ولا

في عكسه. نظرت إليها دائخاً خائفاً، زائغ الرؤية ولكن مغتبطاً غبطة غريبة وعميقة فيَّ، وقلت لها: تعالي معي.

مشينا كثيراً قبل أن نصل الى طريق ضيّق ومقطوع. أصوات القصف العنيف أشكلت عليَّ تحديد المكان الذي كنا فيه. سألتها إن كانت جائعة فلم تجب. لم تكن تتكلم لكنها كانت تنظر إليَّ باستمرار. تنظر الي باستمرار. رأيت أنها لم تكن خائفة، وإن كانت دائماً قريبة مني، تلامسني. وعندها ما عاد يساورني أدنى شك في تصميمها على البقاء معي. حتى تلك اللحظة كنت لا أجرؤ على سؤالها، إن كانت تريد العودة. ولم أعد خائفاً منها.

قلت لها ستمر سيارة من هنا، لا بدّ. تعالي ننتظر في فيء الأشجار. جلسنا في فيء الأشجار. هل بقي معك دخان، سألتها. مدّتْ ساقيها ووضعت رأسها على بطني. كان صدري ينفلق وأنا أحاول الاّ احرك ساكناً. ثم لم أستطع أن أحرك ساكناً. كنت أنظر الى وجهها ولا أصدّق ما أرى. كنت أرى روحي أمامي... ثم فتحتْ عينيها تنظر إلي. فما عدتُ أرى سوى فمها.

حين قبّلتها فقزتُ في الفراغ. اصطكت ركبتاي، وبعدت الأرض كثيراً تحتي. كان فمها ساخناً وطرياً. سائلاً. كنت أشدّها إليَّ حتى ينقطع نفسي ثم أعود الى فمها وينقطع نفسي من جديد.

كانت رائحتها في أنفي وفي فمي كأنها ماء حار. زئبق حار ينفرط، ثم يتجمّع ويترقرق لينفرط من جديد وأروح أجمعه من كل أمكنتها. كم كان ذلك سهلاً. أن تلتوي وتنفتح مع حركتي كأني لأول مرة أغادر وزن جسمي الكبير. كأني رجال كثر وظلّ لرجل واحد في الوقت نفسه. ثقيل وطائر فارغ

وممتلىء حارّ طيّع وكأن من دون عظام.

لأول مرة لا أرى جسم المرأة التي أضاجعها. لم أر جسمها. كأنه سائل للشرب. كأن حرارتها التي فيّ أقوى من أي شكل تستطيع عيناي التقاطه كأني أعمى من أجل أن تأخذ حواسي الأخرى كلّ مداها وأقصى قوتها. لم أر شيئاً، لا جلدها ولا بطنها ولا فخذيها.

كذلك لم أر شهوتي. لم اعرف ما حلّ بي. كأنّ ذلك حصل في لحظة واحدة، في لحظة واحدة، شددتها، قبلتها، دخلتها وصرخت. وكأنَّ ما فعلته بها، معها، لا علاقة له بالجنس أو بمضاجعة النساء.

الآن حين اتذكر أرى أشياء أخرى. أشياء أخرى ترجع إليّ بعد أن تمدّدتُ بجانبها، أنظر إلى وجهها هلعاً. لأني بعد أن خرجت منها عرفت أني لن أخرج منها أبداً. كنت هلعاً، لأن أياماً كثيرة من الصراخ والبكاء والرقص لن تكفي فرحي وندمي، ويقيني من غلبتي وخسارتي نفسي. ندمي الذي لا قعر له، لأن لذة كهذه لن تجيء مرة أُخرى، ولأني، لكي أحاول استعادتها عليّ أن أكون مع أحد آخر، غير نفسي. ولأني لن يمكنني احتمال تبعية لما هو من خارج نفسي. لن يمكنني احتمال خضوعي لجسم آخر يشيخ ويمرض ويموت ويغادر ولا أحد غيري يمكنه ذلك، وقد اخترع الناس الحب الخالص لله، لأنهم يعرفون أنهم لن يرونه. لم يجعلوا له جسماً ولا موتاً. وهو لا يغادر لأنه في كل الأمكنة الفارغة منه.

كنت ممدداً الى جانبها، وقد انفصل جسمها عني وعاد الى حركته التي سأبقى ممغنطاً إليها حتى أهدأ واتفكّك في مكاني. كنت حزيناً، الآن أعرف أني كنت حزيناً، وأنا أنظر الى الشامات السوداء الصغيرة المتناثرة على جلد وجهها ورقبتها.

وأرى شعراً قصيراً نابتاً بين الحاجبين. وأرى نقاطاً سوداء صغيرة فوق الأنف وعلى حافة الشفة السفلى. وأرى زغباً أشقر ذهبياً فوق الشفة العليا. وأرى سناً مكسورة كسرًا صغيراً في طرفها.

الآن اعرف معنى دهشتي وفراغي وحدسي بغلبتي وخسارتي نفسي.

في الشاحنة التي رفعتنا عن الطريق الفرعي الضيّق، كنت اتابع النظر إليها. الى يديها. أرى خيط اللحم الصغير الملتصق بأظافرها. أظافرها التي كانت تلتمع تحت طلاء وردي شفاف. أرى ظفر سبابتها، وتحته بعض التراب الذي رحت أنظفه بأسناني.

كانت الشاحنة مليئة بالناس. بالهاربين من القصف. وكانت فيها امرأة لا تتوقف عن الصراخ. وكان الآخرون بين البكاء شفقةً عليها وبين التأفف من صراخ قد يرشد القذائف، يقولون لها: اشكري ربك فقد سلم الباقون.

لم أسمع شيئاً. الآن أتذكر أن المرأة كانت تصرخ لأن ابنها الرضيع سقط منها وهي تصعد في الشاحنة التي لم تنتظر. تركته هناك.

أنا، كانت أصابعها في فمي.

|٤|

لم نبق وقتاً طويلاً في المدرسة حيث أنزلونا. قلت أنها إمرأتي، ولم يطلب أحد أوراقها. أعطونا فراشاً وبطانيتين وزاوية من غرفة كان فيها عائلة. الزوجان والجدة وأربعة أطفال. نصبنا شرشفاً أخضر حول فراشنا. لم تحبّنا العائلة لأننا لم نكن نتكلم مع أحد. لم نرو حكايتنا، ولم نذهب معهم للمطالبة بالماء والإحتجاج على فساد المواد الغذائية التي كانت توزّع علينا... وكذلك لأننا تدّبرنا ماء، واغتسلنا مرتين.

كنت أسدل الشرشف الأخضر. أحضنها. أضع رأسي في رقبتها وأتنفس...

وفي الليل كنا نصعد إلى سطح المدرسة حيث كان يسهر كثيرون في برودة الليل. ألّفها بالبطانية، وأمسّد قدميها بكفيّ حتى تدفأ. كانت تبرد كثيراً، وقدماها كانتا دائماً باردتين. كسمكتين. كنت أقول لها أن السبب هو أكلها القليل.

وأروح أتحير في ما عساني أحدثها به. لم تكن تأتيني الأفكار إلا بشقّ النفس. ثم أتصوّر الخريف وكيف ستمطر كثيراً. أحدثها عن رقة الهواء، وأشير إلى النجوم وأسمائها. ثم أنزل إلى الدكان الذي فتحوه في غرفة الإدارة. أشتري لها علبة بسكويت، أو لوحاً من الشوكولاته وأعود ألحّ عليها بالأكل. فتضحك وتأكل. . . ونبقى على سطح المدرسة حتى يخلو، أحياناً قبيل الفجر، لأقبّلها كثيراً. لأنزع عنها ثيابها. أجلس أنظر إليها وهي تخاف. تتلفت، وتشدّ بأطراف البطانية. أجلس أنظر إليها. كل مرة للمرة الأولى. شيئاً آخر وأشياء جديدة. مختلفة تماماً لنفسي. ها هي أمامك. معك. وتنتظرك على أنك السيّد، حينما ترغب وتريد. وهي تريد.

أحياناً كنت أعود فأغطّيها. أرّد عليها البطانيّة، إذ يستحيل عليّ عريُها. ضوء ثدييها وقمر حلمتها الأسود. أردّ عليها البطانية، وأتمدّد إلى جانبها. أمسّد شعرها. أجدله. أفكّه وأقبّله. وتلك الرغبة بالنشيج على مهل لإسترداد أنفاسي، وأنا أنظر إلى السماء. أقوى مني ومستحيل عليّ. أقوى من كل قدرتي ومن مساحة جلدي. ومشدود إليها ضائع ومن غير قدرة. هلكان قبل أن أضمّها إليّ. محبط وتعب، وكفي تشرب من حرارة كتفها العارية وأتعبّأ نقطةً نقطة، من أخمص قدمي، منذ ولدتني أمي، ولا أمتلىء. لا أمتلىء. ثم تفتح البطانية وتأخذني إليها.

كانت أحياناً تغفو. أرتاح بأنها ستنساني الآن وتتركني وحدي. اتنفّس فوق فمها لآخذ الهواء الخارج منها، الذي اختلط بجسمها كلّه ونقّى دمها. لوقت طويل أروح، مستنداً إلى ذراعي، أرقب عرق رقبتها ينبض. أحسد دمها الساري فيها. لا أتحرك حتى تبقى نائمة بقربي. ساكنة وأنا لوحدي.

أعدّ نبض العرق البادي وبتؤدة أضع يدي عليها أحاول النفاذ منه إلى السائل الحارّ الذي يدور فيها. تحت جلدها، وفي كلّ أعضائها.

يوماً ما ستذهب، أقول. لا أتخيّل رجوعها إلى زوجها أو إلى أهلها. لا أتخيل ضجرها مني. فقط ذلك اليقين بذهابها لمجرّد كونها منفصلة عني وفي جسد آخر تأمره بإرادتها. فقط هكذا تقوم وتمشي في إتجاه لا أعرفه ولا أتصوّره. تأمر قدميها فتسيران مبتعدة عني إلى حيث لا أكون. ليس بإتجاهي. صوب عدد لانهائي من الإتّجاهات التي لا تكون صوبي. لا أكون في احدها. هكذا تقف وتسير وأنا أبقى في النقطة التي أكون فيها. وهي كذلك قد تموت، ككل من يموتون بكثرة.

يا أمي، كان يعنّ أحيانا لي أن أصرخ وأنا أنظر إليها نائمة بقربي على سطح المدرسة. وأن أوقظها وأُلبسها ثيابها، وأسألها إلى أين ستذهبين. في أي إتجاه ستخطين ولن تعودي.

كنت أتذكر أنها إمرأة، وأعجب كثيراً. أعجب كيف أن لها جسداً هو ليس جسدي. لا يشبهه، ولا يتطابق مع تفاصيله. . . أتصبر بالوقت. أقول يكفي أن تبقى معي كثيراً لأستطيع إحتمالها. أن تبقى معي طويلاً حتى يفعل الوقت فعله.

يمرّ الوقت على أشياء العالم كسيف. يقطعها إلى نصفين ويخلّصني. يعقّم القسم الأول كتلك المطّهرات القوية، السريعة التبخّر. يفصلها عن أصلها الحيوي. تنشف وتخف، وتتعقم، لكنها ترسو وتبقى فيما القسم الثاني، فضلاتها، يتطاير مع أول الريح ويترسّب ويتكدّس في أماكن بعيدة نجهلها. نخلص منها. تلك التي تخفّ وتتعقم وترسو، تبقى. تبقى في عقمها. تبقى أجسادُنا في عقمها فيما أفكارنا

وذاكرتنا تتطاير وتنعقد ثم تترسب بعيداً. أجسادنا التي يعقّمها الوقت حين يمّر عليها ويماثلها، تنشف من جنسها. هكذا تحايد الأشياء أصولها. المرأة والرجل يصيران شكلاً واحداً. جسداً واحداً. أعضاؤهما تستقّر في جنس واحد. يطلع للمرأة شارب ولحية صغيران كمثل ما صار إليه شارب الرجل ولحيته. يتهدّل ثديان صغيران للرجل فيصيران كمثل ما صار إليه ثديا المرأة الناشفان. حتى عضواهما يصيران كتوأمين، الهشاشة والحجم والهدل والخطوط النافرة الأولى.

هكذا تتطهر المومياءات بزمن طويل عليها. هكذا تحتفظ بضياع جنسها في التعقيم الكامل. بلا البويضات والهرمونات التي نسيتها منذ الزمن الطويل. هكذا لا تدخلها الطفيليات أبداً، لا تدخلها الطفيليّات إلّا إذا إستُخرجت من زمنها وأدخلوها زمناً دخيلاً عليها. هواء مختلفاً.

يمر علينا زمن أنا وإمرأتي. ثم سنتشابه. سيصير لنا جسداً واحداً. جنساً لا اثنين. استعيد جنسها وأحتمله وأتطابق معه وأخلُص.

لكن الزمن يمرّ علينا كإمرأة أيضاً. تعطّلنا. تُوقفنا عندها. تُعقّمنا قبل مرور الوقت الطويل. إمرأة تمنع عنا بركة الطفيليات ورحمتها.

|٥|

تعاودني نسياناتي الكثيرة. تعاودني لأنها تشفق علي. لأني أحياناً أنظر إلى شجرة فأرى النسغ يطلع بطيئاً من الأرض الممتزجة بالرطوبة، يطلع في شعيرات الخشب إلى إنتفاضات الأخضر في الورقة. أنظر إلى بطن الأخت فانسان دو بول فأرى تلافيف عضوها وورقة رحمها الوردية، وأرى بويضتها الصغيرة تنسلخ وتسقط كبندقة، تتدحرج في أنبوب رفيع، ثم تلتصق تحت نبتتين صغيرتين وارفتين. أنظر الى جلدي، وأراه مغطى باليرقانات المجهرية التي تركتها عليه تلك المرأة بيوضاً تغتذي بتؤدة، وأرى عظامي الآتية بيضاء ملتمعة كعظام المتاحف. الكلسيوم والفوسفور.

نسياناتي الكثيرة تأخذني إلى غيري. أصير في الشاحنة التي تمّر مسرعة بين الحرائق، وأروح أصرخ أن يردّوا لي الصفير الذي سقط عند صعودي وبقي هناك. أصرخ أن يتوقّفوا

ويعودوا. أنبش شعري الطويل، وأقول أن لا علاقة لي بالوقت. ماذا يعني ألّا نستطيع العودة إلى لحظة قبل أن يقع منّي. ماذا يعني أن أكون بعد أن وقع بكثير. ما دمتُ هناك. ما دام يقع مني وهو دوماً في طريقه الى الأرض.

يقول لي جابر لا تدع أحوالك تسوء. أنت الآن بخير. نحن الآن بخير. ليس لك أولاد يقعون من الشاحنات. يعتقد جابر أن أحوالي تسوء حين أنسى ولا يعرف أنها فرصتي للراحة. لا يعرف أن جسمي يؤلمني حين يهدأ كثيراً. ذلك أن جابر ليس مثلي. حين يأتي إلى دير الصليب يكون ناسياً كل شيء. وحين يبدأ بالأكل والنوم وينتظم سير المهدئات في دمه يعود من نسيانه. وهو ليس مثلي لأنه حتى ناسياً يتذكّر أشياء كثيرة. أحياناً يخبرني إياها وهو يضحك من نفسه. يخجل قليلاً ممّا يحمل أهله.

أخبرني أنه بعد ذلك الحلم ـ وكان دائماً يرجىء روايته عليّ ـ صار لا يأكل ولا ينام. بقي أياماً لا يأكل ولا ينام، ولا يذهب إلى عمله. يبقى صامتاً ويكره الضجيج من حوله. لا يعرف في أي وقت من النهار أو الليل هو، ويرفض أن تكلمه امرأته أو أولاده.

بعد ذلك خرجتُ الى البلكون. قال لي، وقفتُ على حافته، وأخذت أبحلق في الشقق القريبة مني وأسأل نفسي: كل هؤلاء البشر ماذا يفعلون؟ ويلّح عليّ السؤال ماذا يفعلون؟ كلهم مثلي في شقق صغيرة ضيّقة. تركوا بيوتهم، وسكنوا هذه الشقق التي كانت مفروشة لاستقبال السيّاح ورجال الأعمال والقوّادين والمومسات، الوطنيات والأجنبيات. أنظروا الآن ما أقبحها. غسيل منشور وأولاد وروائح طبيخ وصراصير وجرذان. يأكلون وينامون،

ويتغوّطون. . . ماذا يفعلون. ثم صرختُ من حافة البلكون: ماذا تفعلون؟ أريد أن أعرف الآن. ماذا تفعلون والشرور تسير في الشوارع والأزقة كسيول البراكين. سوف تُبادون عن بكرة أبيكم. . . أنا المسيح المهدي لن أُبقي ولن أذرّ. طوفان من النار والكبريت وأمحقكم. ورحت أصرخ الله أكبر. . . الله أكبر. . . سأقيم العدل. الله أكبر.

إلتّفتْ حول جذعي أيدٍ كثيرة، وجذبوني الى الداخل. راحت إمرأتي تبكي وأنهال عليّ أبو عصام بالضرب حتى هدأت. قال لأولادي لا تخافوا إنها كريزة وتمر. أعصابه تعبانة.

بعد أيام قال لهم الطبيب الأدوية لن تفيد. يجب أن تأخذوه إلى المنطقة الشرقية. إلى دير الصليب. هنا مستحيل. أطلب لكم سيارة إسعاف من الصليب الأحمر عندما تقرّرون.

حتى الآن يقشعرّ بدني حين أتذكر الحلم الذي لم أكن أقوى على روايته. أجهش بالبكاء كلّما عاودني ومرّت صورهُ في رأسي.

وذات يوم روى لي جابر حلمه. قال: كنت أحصد القمح في خراج قريتي وفجأة سقط ليل كثيف. وجدتُ نفسي وحدي على تلّة عالية. ثم انشّقت السماء عن نور قوي، وشاهدتُ السيدة مريم تنزلق فيه إليّ. ركعت خاشعاً أطلب الغفران، لكنها نادتني بإسمي، ومدّت لي يدها. مددتُ يدي، وحين لمستْ أطرافُ أصابعي أطراف أصابعها، كانت القّبة التي أركع عليها كلّ ما بقي من العالم. ولم يتبقَّ تحتي سوى هوّة هائلة من الفراغ. ومن ذلك الفراغ العظيم راحت تصعد موسيقى جميلة وقوّية، تشتّد وتتعاظم.

ثم استيقظتُ غارقاً في بولي، وفرائصي ترتعد من الهلع

والفرح . . .

ثم نظر اليّ جابر وقال كيف تفسّر هذا الحلم. . . لا قدرة لأحد أن ينزعه من رأسي، ولا أن ينزع من رأسي إيماني العميق بأني أستطيع أن أفعل شيئاً لأنهي الحرب. لا أقول أخلّص العالم، ولكن أنهي الحرب فقط. لا أجرؤ على قول هذا إلاّ لك لأنك صديقي. قلت له: أيّ عذراء مريم يا جابر. أنا لي قصة معها سأرويها لك في ما بعد. . . لكنني اعتقد أنك حلمت حلمك بعد أن شتمت المسيح وأمه كثيراً ثم خفت. خفت ورأيت شروراً وشياطين تلعب في الشارع تحت بلكون بيتك. قال جابر لكنني لم أشتم المسيح ـ إنه عيسى يا رجل فكيف يمكنني ذلك وستّنا مريم أمه. مستحيل. قلت لا بأس يا جابر. يجب أن تأكل جيداً، وتنام جيداً، إذا كنت تريد العودة إلى أهلك.

بعد أن روى لي جابر حلمه، صار ينظر إليّ شذراً. ولا يأتي لملاقاتي في الحديقة إلاّ نادراً. . . لا يأتي إلا مع الممرضات، حين يطلبن منه القيام بعمل يرفضه يشكونه إليّ ثم يذهبن فيبقى قليلاً.

يهدّدني جابر بضعفه، بقلّة حيله وبشرود ذهنه وبإمتناعه أمامي عن الأكل في المطعم . حين يفعل ذلك أكرهه. أكرهه حين يعرف أنه يريدني أن أحبّه. أن أصدقه وأكلّمه، وأن يلتصق بي. وأعرف آنذاك بأنه يكذب كثيراً. وبأن حلمه مختلق ومفبرك بكامله. يكذب حين يقول إني الوحيد فهذا حلم بوظيفة، وله معانٍ كبيرة وواضحة. يرويه جابر على الجميع ليحمي نفسه. لأنه يعرف تماماً أنه في المنطقة الشرقية. وهو يعرف تماماً لماذا يسخرون منه في الحمّام. يكذب جابر ويخترع ضعفاً يحمي به نفسه. ويذكّرني بسمعان.

سمعان الذي ودعته على المطار باكياً حين قرر أن يسافر إلى ألمانيا حيث إبن خالته. قال لي: ليس باستطاعتي أن أكون قاتلاً. جربت ولم أستطع. بلت في ثيابي. وكاد خرفي يقتلني. سأكمل دراستي في ألمانيا لست محارباً. أكتب لي ولا تنسني. قال لي سمعان الذي كنت أنام عنده أكثر مما كنت أنام في بيتي.

سمعان، الذي استقبلته على المطار بعد سنتين باكياً أيضاً حين رأيت عينيه الزائغتين وشحوبه المرضي. بعد أيام من الصمت والأرق قال لي أن منظّمة إجرام وتجسّس عالمية تلاحقه. وبعد أيام أخرى قال إن السبب هو مسؤوليته الرفيعة في الدين الذي إعتنقه في ألمانيا. دين كوني، هو فيه بمرتبة «وزير». وبعد أيام قال إن المرأة الألمانية التي أحبّها وتزوجّها هي التي وشتْ به للمنظمة الخطيرة لأنه كان يلاحقها ليستردّها. ثم قال لي إن المال الذي صرفه عليها هو الذي قضى على أمه ـ لا السرطان. لأنه تجاهل طلباتها بمال للمعالجة، وصرف ماله على المرأة الألمانية التي أحبّها وتزّوجها. وكان أبوها يملك معملاً كبيراً، وهي غنيّة ومدلّلة. ثم قال لي أنه كان قتلها لو لم تفضح أمره للمنظّمة. قلت لسمعان لا بأس. هنا سلاح كثير. نعود إلى ألمانيا ونقتلها. ولن تعرف المنظمة بأمرنا لأننا سنتخفّى، وسنزوّر جوازات السفر، فهذا ممكن وسهل، ولا يكلّف الكثير من المال.

بعد أن عاد سمعان يأكل وينام، أخذته إلى قبر أمّه. لم أكن أتركه لحظة. وحين تعرّف الى منى، وعاد يبتسم تأكّد لي أن نظرته لم تعد زائغة وصرت أراه ينام كطفل فاطمأن بالي عليه.

لكن سمعان بقي يريدني. بقي يريدنا جميعاً. بقي ينزلق في

إنهيارات عصبيّة صغيرة، ويأخذ الحبوب المهدئة. كنّا دائماً نعتقد، ونخاف جداً، أنه سينتحر. وكان في هذا التهديد تهديدٌ شخصيّ لكلّ منا. خصوصاً أنا. لم أكن اتصوّر حالي أنا نفسي إن إنتحر سمعان.

بقينا، بقيت أغفر له كلّ شيء، وأسمح له بكلّ شيء. ولدي المدّلل كان سمعان. وشرطي الوحيد هو أن يستمرّ بالتنفّس. بالنوم.

حتّى انتبهتُ ذات يوم بأن سمعان قد تزوّج منى. وأن له إبنة. وله بيت ملكه. وأنه لم يتوقف يوماً عن العمل. وأن له علاقات طيّبة جداً مع الجميع، والكل يحنو على سمعان. وسمعان يريد المزيد. ويبرطع كحيوان سعيد في حبّنا ودرايتنا. وفي ذلك اليوم نفسه انتبهت إلى أني لم اتزوّج. وأن ليس لي بيت حتى بالإيجار. وأن ليس لي عمل ثابت. وأن الجميع يعتبرونني مزعجاً، متخلّفاً، وقحاً، عنيفاً، أخرق، لا موهبة لي. وأيضاً قوياً زيادة عن اللزوم وشديد البأس والبطش. كارهاً للجميع. زائداً عن اللزوم. انتبهت أني وحدي. وأن الصورة التي رسموها لي صحيحة وأني أكرههم جميعاً. وانتبهت إلى أن ليس لي إمرأة ولا مكان. وأن قلبي معلّق في علبة صدري الخاوية بخيط من القطن. لذا مكثت على ما قرّروا. نكاية. كنت أقوى من الجميع. وأشدّهم بطشاً، بلزوم ومن غير لزوم. ولم يكن أحد يرى أني واقف كالرمح المفتت. واقف كشوكة يابسة. وأني وحدي. مخالف وقح عنيد وكاره. لم يرني أحد. ظللتُ واقفاً. صاروا يجتمعون بدوني. يتّفقون عليّ. يتفكّهون بسيرتي. يغفرون خيانات بعضهم بحنان وتفهّم وأنا أحقد وأتذكر. ظللت واقفاً. صاروا يتعاونون، يتبادلون كلّ أنواع الخدمات. يسهرون

ويعملون مع بعض. خفيةً عني. ظللت واقفاً، حرناً كبغل في وقفتي، وهم يسيرون بمواكبة شكواهم وتشكيّاتهم من الأزمنة الرديئة. وينظرون الى ضعف بعضهم وإلى ضعف سمعان بحنوّ. كانوا يكذبون كثيراً. ظللتُ واقفاً، وكانوا معيار قوتي في وقفتي. استمّروا. يكذبون كثيراً وأنا واقف كالرمح المفتّت في الريح.

كرهني سمعان، وصار يتجنّبني. وأنا في الليل أحاكيه: يا سمعان كيف تنساني أنا، لتندلق في كذبك الصغير عليهم. في كذبهم الصغير عليك. لم تكن هكذا قبل الحروب. يا سمعان.

إنتبه يا جابر. انتبهوا أن يحبّني أحد. أن يلتصق بي أحد ويتنفّس في هوائي. أعود بشعاً مؤذياً. لئيماً ومن غير شفقة. إنتبهوا أن يقترب مني أحد ويحبّني. لأني أرى النسغ يطلع بطيئاً من التراب الممزوج بالرطوبة القائمة في شعيرات الخشب الطريئة إلى إنتفاضات الأخضر الواهي في الورقة. أحياناً.

|٦|

كنت جُعَلَ الصحراء. شاربَ الضباب. لها.

مساحات لا تنتهي. أفق يلي الأفق، ويمتد فيه. أرض حمراء من نار، ومتحركة. شمس كبيرة وواطئة وهواء مشوي، مشفوط ومنفوخ في حركة واحدة. من أجل تلامس النار، إشتدادها واشتباكها. رمل يطق ويتفقّع ويذري رملاً.

يعرف جعل الصحراء أنها إرادة الرب فينتظر تواقيته. فقط قبيل الفجر يمرّ الغبش الرمادي، ويهبط الضباب. يتكثف وينزل حتى الرمل.

يمتد جعل الصحراء داخل جسمه. يكبر دون أن يفرد أعضاءه، ودون أن ينتفش بالرطوبة لأن عليه الإحتفاظ بحرارته الداخلية، ليكون في أقصى درجات التفاوت والتضاد. يكوّم بأرجله مرتفعاً في الرمل. يعادل في حجمه حجم جسمه الصغير، ثم يستند إليه. يستند إليه رأسه الى

تحت، حتى يكون عمودياً تماماً، في زاوية قائمة مع الأرض. يحكم إغلاق منافذ جسمه، وعلى مساحة جسم الجعل يمّر الضباب ويترك نداه. يتكوم الندى رطوبة، ثم حبيبات صغيرة تتجمع نقاطاً، تروح تنزلق عن جلده وئيداً الى تحت. إلى فمه، فيشرب.

لكنني لم أفهم حكمة الرب. حكمته في منح الصحراء جعلها. لماذا - إذا كانت صحراء، مكاناً للقحط والصمت وعبرةً لموات المخلوقات وسكونها، لماذا أرسل إليها جعله، لماذا أرسله إلى بشاعته وعذابه وشظف وقته. ليعطش كل ساعات يومه، ويختبىء من المكان الذي خُلق له وفيه وهو ليس مكاناً للعيش. فجعل الصحراء لا يعرف من مكانه سوى هروبه منه، وسوى لحظات الضباب التي تمر سريعاً، عرضياً، فيشربها. يرى الصحراء في صورة واهمة وزائلة من حياتها الحقيقية. ليهربّها. يهرب الى الليل حين تعود الصحراء صحراء، حين تكون في نهارها، فلا يعرف أين يعيش. لا يعرف إلّا ما هو ممنوع عليه منها، بالفكرة البعيدة والتوجّس والخوف. إلا ما هو بالحدس مميت له. ولولا خوفه وهروبه إلى ليله الإصطناعي الكاذب لاعتقد أن الصحراء هي ذلك النبع الكبير الذي ينزل من السماء، ويغلّف كيانه برداً وسلاماً.

لماذا لا يكون جعل الصحراء في الغاب، يرتع بين إخوانه جعلان الغاب، الذين يعرفون الغاب طيلة يومهم ويومه. ليلهم وليله. يشربون من النبع الجاري، ومن المطر النازل في مواسمه وفي غيرها، ومن ندى الأعشاب الطرية، حين يحلو المزاج. لماذا لا يكون بين هؤلاء الذين - بدل أن يغرسوا رؤوسهم في الأرض ليشربوا عرقَ أجسامهم وضبابَ السماء

حين ترأف، وتضادّهم مع رأفتها، ثم يسرعون إلى التجاهل والنسيان وإلى الإختباء من أمهم الطبيعة ـ لماذا لا يكون من هؤلاء الذين يروحون في غناء وأزيز؟

لكن حكمة الرب لا تحب جعل الصحراء. تحبه عبرةً لمن اعتبر على مقدرتها العظيمة، وعلى إعجازها في التنويع والتوزيع، وفي إستنباط الحياة من قلب الموت. كمثل حبها لهؤلاء الشعوب الذين تجعل من قدرتهم على البقاء علفاً لمخيلة شعوب الغاب والخضرة، سماداً لغريزة البقاء المباركة، ودرساً لأذهانها الغليظة الكسلانة البطرانة. شوف جعل الصحراء. شوف شعوب الحروب الأهلية. شوف النبي أيوب كيف يعيد إلى جرحه الدودة التي، متخمةً تقع عنه.

لكني لم أكن أقول لها شوفيني. كان هوائي مشوياً وأرضي محلوقة، ولا أملك شيئاً أو أحداً، إلا أني سراً، كنت، رأسي إلى تحت، فارداً مساحتي كلها، ذاكرتي القليلة وخيالي الفقير، ضابطاً فتحاتي على وحشتي واستوحاشي، لأتصيّد لها الضباب، لأنصب له فخاخاً يعلق فيها عليَّ، وينزلق عنّي لتشرب.

أجلس حزيناً متفكّراً كيف أُدبق بي هواءً شرساً، محروقاً مسموماً، فارغاً كله وخدّاعاً، لأمتص منه رطوبةً أُخرجها لترى جلدي يلتمع بالطراوة، ليناً رخصاً طازجاً وتقبل عليه.

كيف أُسليّها، أُنسيها، ليمر الوقت، لتبقى. فأنا أعرف أن لا أحد يحبني لوقت طويل. ما من أحد أحبني لوقت طويل. للوقت الذي يلزم لعَلَقَة شبقي أن تشبع وتقع من نفسها. أنا والآخرون لا نخطىء بعضنا أبداً. نعرف بحدس الحيوانات المطاردة حفرة موتنا القادم. ما من أحد أحبني لوقت التفتُ فيه إليه من بعيد، ولا أتعرّف إلى عاشقي الباقي على حافة

الطريق، الباقي في جروحه المتقيّحة كالسومري. الباقي في حبّي.

أعرف أنها تحبني. أعرف كيف تغمض عينيها حين أقترب منها وتروح تشمني. تتشممّني وتشّمشمني كجرو أعمى. كيف تفتح لي فمها، ساعديها وساقيها وتغيب لأحضر. كيف ترطّبني بريقها، وتنفخ عليّ حتى أبترد في الحرّ. كيف تقبّل يدي وتسند وجهها إلى كفّي المفتوح، قبل أن تنام. ثم تنام.

أعرف أنها تحبني.

حين آكل تتوقف عن الأكل، وتروح تنظر إلي. تبتسم وتنظر وكأنها تقود اللقمة من حلقي حتى تصير غذاء يدور في دمي وأعضائي. تتوقف عن الأكل وتنظر كأني أكبر أمامها. والآن أصير عافية الرجل الذي فيّ. وحين تجد أني أرتبك وأخجل تشيح عني. تأكل معي حتى أنتهي. تحمل الأكل بعيداً، وتعود إليّ تغسل أصابعي بريقها، وتفتح قميصي. تضع وجهها في صدري وتقول لي أن أتنفّس ببطء وأن أحاول أن أغفو لأنها ستنظّم إيقاع تنفسّها على حركة صدري.

كانت تفتح ذراعي المطوي وتضع شفتيها في طيّة ذراعي حيث الجلد ليّن والعروق ظاهرة دافئة. تضغط على الساعد لتراها، ثم تعود بشفتيها إلى الطيّة وتبقى هناك، في الجلد الذي يشبهني طفلاً. ذلك ربما الذي لن يشيخ ويتهدّل، ذلك ربما الذي سيبقى على حاله بعد أن تتركني سنوات وأصير عجوزاً.

بعد أن عادتْ معي إلى قريتي وسكنتْ معنا، لم يكن يربكها، حين تكون المياه مقطوعة، أن تتقدّم بتؤدة وأمام أسماء، من الطشت الصغير، وتساعدني في غسل قدميّ وهي تنظر في وجهي. ثم كانت ترفع يدي من الماء كأنها تتوسل. تخرج أسماء من الغرفة حيّية. وهي، تصبّن يديها جيداً،

وتروح تدلك قدمي بالصابون. تقول: «لا تخجل هكذا، إني أحب قدميك كيديك وكقلبك. غداً إن أردت تغسل أنت قدمي... أو تغسلني كلي». تسكب الماء النظيف، ثم ترفع قدمي إلى الفوطة في حرجها. تنشّفهما على مهل. على مهل كأن بهما ألماً تداريه. تبتسم من جديد وتقول: مدّهما لا تخجل. أنت سيدي، وأنت أيضاً خادمي، تلميذي ورسولي. كما فعل عيسى. مدّهما لا تخجل. فأنا أحبّ قدميك كقلبك. ثم تروح تدّلك قدمي وتقول إنّ في راحة القدمين راحة الجسد كلّه. والنفس أيضاً، لأنهما نهايته وإنعقاد خيطه. تعيد الشعر منسدلاً في إتجاهه. تقبّل قدمي في المساحة الملساء العارية فوق الأصابع ثم تتركني وترفع الطشت إلى البالوعة.

كانت أسماء تقول إنها صديقة لها تعرفها من زمان وهي في زيارة طويلة. علقتْ في منطقتنا ولن تلبث أن تعود. ثم راحت تقول أنها من منطقتنا، مسيحية مثلنا لكن أهلها توفوا، وهي ستقيم معنا، ثم راحت تقول إنها خطيبتي، وان أهلها مغتربون، وأننا سنتزوج حالما يحضر أهلها من أستراليا لمباركة الزواج. لم تكن أسماء تعرف عنها شيئاً. ولم تكن تعرف على أي حال أن لها زوجاً. ثمّ انصرف الأهل والجيران إلى مشاغلهم وإلى تسليات أخرى.

قبلتْ أسماء ألّا تكثر من الأسئلة، لأنها رأت أننا عاشقان، وأن هذه المرأة هي إمرأتي. إمرأتي زوجة أم لا. بقيت تداري عني وعنها قلقاً عميقاً وخوفاً عليّ، لكنها أحبّتها بعد فترة. ربما لحبّها لي. ربما للحب الذي لم تحبّه أختي العانس، وأصاخت لسماع أخباره وحكاياته طويلاً وكثيراً.

|٧|

أعرف أنها تحبني لكن لا شيء يكفيني. لا شيء يكفيني. يعرّفني يقيناً.

كانت كلما أحبتني أكثر إتسعت عليّ. تتسع وتكبر حتى أصغر. أصغر وأتضاءل، ولا أعود قادراً على شيء تلتبس عليّ أموري وأعيا أحياناً عن مضاجعتها. أقول كيف يمكن هذا. كيف يمكن أن تحبني في غير هذه اللحظة. كيف يمكن لي أن أتأكد من أن رغبتها ليست سوى ضجر، نزوة، مزاج. لأنها من غير إمتحان. كلّما رأيتها تحبني تضاءلتُ، وارتبكتُ، والتبستْ عليّ أموري، وتعاظمتْ فيّ رغبةُ أن أمتحنها...

أتركها وحيدة في البيت، وأخرج. أخرج ثم أعود خفية لأرى ما عساها تفعل في غيابي، وكيف تدبّر ضجرها ووحشتها إليّ. و من غير دراية منها أراها على المصطبة،

بجانب أسماء تكتهل بسرعة مثلها، ومثل أسماء تبدو عانساً وقد سمكت عذريتها وقست. وهي تساعدها في فتح حبّات المشمش الناضجة، ومَدها على البسط الصغيرة والصواني التي ستأخذ مكانها على أقاصي المصطبة، في عين الشمس الآخذة بالابتراد والثقل في أيلول المتعثّر. تكونان بطيئتين في حركتهما، مبتسمتين وساهيتين. أجلس في الحاكورة، خلف أصص الأضاليا في العتمة أحدّق فيها تنظّف أظافرها ـ التي عادت قصيرة كما من زمان ـ من دبق المشمش، وترفع عن جبينها الخصلات الخفيفة بساعدها. أرى مرةً أخرى أنها ليست جميلة. انها بعيدة ومن بلاد أخرى. مختلفة وليست قريبتي، وإني مضطر أحياناً لشرح بعض المفردات، التي تسمعها ولا تفهم ما تعني بلهجتنا.

لا تنظر إلى الساعة ولا تلتفت ناحية مدخل البيت. تشبك يديها وتروح تنظر تحت ضوء المصطبة الخافت إلى طيران الهوام وفراشات الليل الصغيرة. إلى حشرات المساء التي تحرّك رذاذ الضوء. تبقى هناك وحيدة بعد أن تقوم أسماء إلى الداخل، وتبدأ رائحة العشاء بالتسّرب من النوافذ. أراها وحيدة وبعيدة، وأتساءل ماذا تريد هذه المرأة التي لا يبدو عليها أنها تنتظرني. بمَ تبدو مستمتعةً، وبمَ تفكّر. بمن. كيف تعرف ما يدور في رأس إمرأة. رأس أقرب إلى حوصلة تتقلّب فيها الأمزجة وصور الأشياء المهزوزة. كيف أعرف ما يدور في رأسها وحيدةً، ومن أين يأتيني اليقين.

أمكث في مخبأي حتى أضجر وأتعب. أقرر أن أخرج طيلة الليل حتى أرى ما يكون من أمرها. أسير في الحرج القريب من البيت. أبحث عن رجل صديق أقضي معه الوقت. رجل يشدّ أزري دون أن يدري. يصطف إلى جانبي ضدّها.

يكلّمني فأنسى، وأعرف أنها ليست سوى جزء، شيء من أشياء. إمرأة، يحسدونني على إمتلاكي إياها. رجل يكلّمني فيعيد رسم صورتها بين صور النساء الكثيرات التي تتناولها أحاديثنا الليلية حين نضجر من السياسة وأخبار الكهرباء المقطوعة. حين تعزّ لنا الفاكهة، ونحسّ بجفاف ريقنا. يساعدني دون أن يتكلّم عنها. يساعدني بالكلام عن أخريات. فأجد فجأة أنهن جميعاً يتشابهن، أقول سأرجع إليها كما سيرجع هو إلى إمرأته.

لا يكلمونني أبداً عنها لأني أقفل الأبواب سريعاً فيفهمون. لكن في آخر الليل، تأخذني عليها شفقة خفيفة. وفي طريقي أروح أتوعدها لو وجدتها نائمة لا تنتظر عودتي. أرى ضوء الشمعة ينسرب من تحت باب الغرفة. أدخل، فأراها جالسة في السرير تحدّق فيّ عائداً.

أقف وأنظر إليها. كأنها تمحو حزناً خفيفاً حين تراني. أسألها لماذا لم تنم فلا تجيب. تجلس على حافة السرير القريبة مني. أبتعد إلى النافذة، أفك أزرار قميصي، وأنا أحدّق في أزرق الليل، وأقرر ألّا أنام معها. لا الليلة ولا ليالي كثيرة قادمة. أفكر في فراش المصطبة الضيّق، وأنا أشرق برائحة ظلّها المرتجف على الحائط أمامي. لكني حين أسمع حفيف قدميها العاريتين على الأرض تقترب مني، تفرغ ركبتاي وألتوي. ترفع قميصي من الخلف، وتحيط جلدي العاري بذراعيها كحزام من الأسيد. تمرّ بفمها الحار من ظهري الى رقبتي وتلتصق بي، فأراها. أرى لحمها مرتداً كأنها مستلقية، ثدييها وبطنها منداحة، مجوفة قليلاً، وثلثيّ وركيها الصغيرتين مرتفعتين. أرى جسمها بنتوءاته تلك متداخلةً فيّ. حارّة.

آخذها واقفاً وأنا أشهق. ليست لوعة لا تهدأ. ليست

شهوة أو غراماً. إني أعمى. لا أرى سوى أسود سميك وعميق. إنها تطلع من داخلي مثل روحي، وأضحك أحياناً كالموسوس إذا نظرت في المرآة ولم أرها.

أعرف هذا حين أنظر إلى وجهها بعد أن أضاجعها. ومغمضتان، عيناها تنظران إلي. تمسكني إليها، لا تريدني أن أخرج منها. لكن أين هي؟

أين أضعها هذه المرأة التي لا تشبهني، وهي نفسي إلى هذه الدرجة. ولا أرى نساء في الأرض. المرأة التي تعجبني في الشارع تكون لا تشبهها أبداً. تكون تشبه الرجال. أنتبه، حين أفكرّ بالأمر، بأني لا أرى سوى النساء اللواتي لا يشبهنها، واللواتي يشبهن الرجال قليلاً. كأنّ جنسها شيء ضدي وأكرهه. أريده أن يقف عندها ويقتصر عليها. أو كأني يُشقيني أن تختلف كثيراً عني. وأريدها أن تمشي صوبي لأستطيع إحتمالها، لتستطيع أن تفهم كيف أني حادّ وسريع الإنكسار في جسمي الثقيل الذي يقودني حجمه وكبره وغلاظته.

صرت أحب كل ما يقع قريباً من ذكورتي السريعة النفور، ويخفف منها عني. أصغي بحسد إلى أخبار الحيوان والنبات الذي يتوالد من نفسه، وفيه عضوا التأنيث والتذكير. هذا جنس خلُص من عذابه. حتى أني صرت أبحث، في كلّ ما أحبه ويعجبني، عن ميلٍ عميق لتلك الحدود الصارمة إلى الإرتجاج والحيرة.

ربما لهذا كنت أحبّ أن أرى الزغب الذي يعلو شفتهاالعليا، وقد عاد أسود، وشعر حاجبيها الذي نبت وعاد يشتبك خفيفاً فوق أنفها لا تنتفه. وأظافرها المقصوصة حتى اللحم، بلا طلاء، وعروق يديها الزرقاء النافرة.

عرفت كذلك أني أصغي لأم كلثوم وهي تأخذني إليها، لأنها ليست مطربة أنثى. ليس تماماً. وجهها ليس جميلًا كوجوه النساء ولها رئتان هائلتان... ثدياها كبيران لكن رقبتها غليظة لتستطيع إحتواء حنجرتها. ولأنّ صوتها أكثر من جنس واحد فهو يطلع حتى قبّة الرحم، ويهبط حتى بئر الخصيتين. الحامض والسكرّي. صوت بلا جنس والاثنان معاً. كلام أغانيها في مذكر يتضمّن التأنيث، ولقبها الست. السّت فقط كأنه توكيد لما ليس مؤكداً، ليس بدهياً. للقطع والهروب من الحيرة وهي لا تستحي في المناجاة والغزل، تحكي عن ليالي العشق والوصل وعن دوران الكؤوس بالشراب وعن فم الحبيب. تسمعها النساء رجلًا، ويسمعها الرجال امرأة. وصوتها يغضب كأنثى، ويطيع كرجل حين الاثنان عاشقان.

زمن صوتها هو أيضاً ملتبس بين أنوثة الارستقراطية الذاهبة وذكورة بدايات التحرير بين الكهولة والمراهقة. وبيولوجيا صوتها خلط وندف لانتظار الهورمونات وإنفصالها بين الشارع العام ومشربيات الحريم الظليلة بالياسمين، بين شمس المسالك المكتظّة وارتعاشات الأبخرة الطريّة في الحمامات التركية. بين بَرَادة المعادن المحترقة وشراراتها وبرودة الحليب الذي يحمض وئيداً في الدفء. صوت إمرأة ورجل معاً. ألا يقولون أنها كانت سحاقيّة.

أعرف أن إمرأتي تحبني لكن لا شيء يكفيني، يعرّفني يقيناً. كيف تعرف ماذا يدور برأس إمرأة، حيث يتنطط العقل كالجندب؟

|٨|

قلْ لي أيها المُمّرض. من أي مرض تشكو، وممّ نحن مرضى؟

أخذ الممرض المرأة العرجاء من يدها. أجلسها على الكرسي بتؤدة، ورفع رباط رأسها الذي إنزلق على عينيها، ثم سوّى الغطاء على ركبتيها، وجعل يديها فوقهما، فعندها زيارة.

إنهم يزورونها للمرة الأخيرة، فهذه المرأة اللطيفة تموت، قلت في نفسي. أعرفهم جيداً وبلمحة بصر. هؤلاء الذين سيموتون قريباً، دون دلائل أو إشارات واضحة. فقط يروح قلبي إليهم، وتتعلق بهم عيناي، وتلّح علي رغبة الإقتراب منهم، والتحديق في ملامحهم. وكلمة وداعاً.

حملوا إليها موزاً. لأنه طريٍ لزج، سهل التقشير، ولا يحتاج السكاكين الحّادة. لأنهم لا يرون للمرضى في عقولهم

شأناً مع الحياة، لأنهم يعتقدون أننا في ظلّها، في وهمها، في طرفها اليابس البعيد، يتوقعون منا عدم الرغبة بها، الإستنكاف عنها والعزوف، والمحاولة الدائمة لتركها بإرادة منّا، أو هكذا سهواً. يعتقدون أنها لا تعجبنا لأننا لا بدّ نجهلها. ولأن دفق الدم الباهت في عروقنا لا يكفي. يعتقدون أن أجسادنا لا تكفي ـ حيّةً ـ لتُلحقنا بقافلة الحياة. يعتقدون أن الحياة هي في مكان آخر غير الجسد... وأننا في المنزلة الفاصلة الغامضة السريعة الزوال بين الحياة والموت. كأن أجسادنا ما زالت معلقة بالحياة بخيط رفيع، لا بد سينقطع ولو دون سبب. أو كأن رغبتنا بالموت أكيدة نافلة، وسننزلق إليها طبيعياً أو عن غير قصد. إنها رغبتهم هم لأنهم يرون أننا غير جديرين بالعيش، لا بأفراحه ولا حتى بأتراحه. ولأن حياتنا النباتية ليست كمثل حياة الحيوان أو النبات، المحسوبي ردات الفعل والسيرة. لا يقفز الحيوان أو النبات عن المتوقع منه. وهو كذلك لا يشبه مطلقاً شكل الناس. نحن نذكّرهم كثيراً بأنفسهم. أجسادنا كأجسادهم ومثلهم نتكلم ونسير، ومثلهم في ما مضى كنّا، قبل أن نصير إلى ما صرنا إليه من التهافت والمرض والإبتعاد عن الحياة وجوهرها المضيء. وربما من هذا التماثل ننفذ، وندبّ الرعب في قيعانهم الدفينة، نرشّ الماء على بذور رغبتهم بالإنفلات والتسيّب والغفلة والنوم عن الأيام.

يقررون وضعنا على مسافة بعيدة منهم. ويعزلوننا. ثم يعزلوننا في أمكنة محاطة بالأسوار وبالغابات والأشجار. لهذا ربما حين يكلّموننا، يرفعون أصواتهم عالياً، لكي تصلنا لإبتعادنا القصّي. ويتكلمون أمامنا عنا، ولو كنا نعي. يفترضون فينا غصباً عنا الصمم، وعدم الوعي. ويكرّرون

كثيراً كلامهم، ودائماً يتساءلون إن كنا نتعرّف عليهم لأنهم يفضلّون ـ حين يعودون إلى بيوتهم ـ ألّا نتذكرهم لكي لا يتذكرونا. . . وسنساعدهم في ذلك. نساعدهم في ذلك.

يطعمونها الموز بحنان ويتكلمون أمامها عنها، ثم يرفعون أصواتهم بالأسئلة السهلة حين يتوجهون إليها، يكررون الأسئلة دون أن ينتظروا منها جواباً. . . وهي غدت لا تجيب، مستغرقةً في المضغ والإبتلاع، مشيحةً عنهم. مشيحة عنهم.

ويرون المرأة المريضة في عقلها أشد مرضاً من الرجل المريض في عقله. أشد إستغراقاً وإبتعاداً لا أشد ضعفاً. إنها أكثر تعرضاً للعيب في إدارتها لجسمها، إذ هي لا تدرك الحشمة. وتتساوى عندها أعضاؤها كلّها، فلا تتحكم في أي منها كما ينبغي. كأن المرأة المريضة في عقلها تفقد الضابط مرتين. مرة لغريزتها، ومرةً لفقدانها ما تعلمتْ ضبطه بالسلوك.

يطعمونها الموز بحنان، ينظفون حتى ما لم توسّخه. يتوجّسون منها ومن كل شيء. لا يطيلون المكوث لأنهم يفترضون أنها لا تعرف شيئاً عن الوقت. يباعدون ما بين زياراتهم. وحين ستموت لن يكونوا هناك. سيطلبون من إدارة المستشفى نقلها بسيارات الصليب الأحمر، وسيلاقونها عند مفترق طريق ما، غير بعيد عن المكان الذي سيدفنونها فيه. . . لن يحزنوا كثيراً لأنه موتها الثاني. وسيقول لهم المعزّون أنها إستراحت. ماتت ميتة ربّها ولم تطلها الحروب.

أرى كل هذا. لا أعرف إن كنت أقل مرضاً. ولا أعرف إن كان هؤلاء الذين يتحركون حولي يرون هم أيضاً ما أرى. إن كانوا أقل أو أكثر مرضاً مني. لا أعرف التصنيف ولا

المنازل، لكني أرى المسافة بيني وبين من يأتون لزيارتنا والمرضين والأطباء. بيني وبين من هم خارج الأسوار ما وراء غابة دير الصليب. لا أراها تلك المسافة.

نسيت كم من الوقت مضى لم أر فيه جابر حين التقيته في جلسات الطبيب الجديد.

قلت في نفسي: هذا الطبيب الجديد كان لا بد في الخارج، في أميركا أو في أوروبا. وفي يوم من الأيام واتته الحمية. ضرب فيه صوت الضمير الوطني، أو الإنساني الشمولي كما يضرب توازن السيارة المسرعة ثقب مفاجىء في أحد دواليبها. فكر في رأسه: لا أريد مالاً ولا جاهاً. بلدي بحاجة إليّ فهناك الشقاء والجنون الفعليين. خيّر زوجته الأجنبية بسرعة: تبقين هنا أو تعودين معي. وضّب حقائبه في ليلة ليلاء، وأتانا إلى دير الصليب. عين يطفئها إنكسار الشفقة وعين يشعلها حماس العمل الدؤوب على مداواتنا من أمراض النفس والمجتمع.

المجتمع... المجتمع... كنا أنا وجابر ننفجر بالضحك في جلسات الطبيب الجديد كلما سمعنا لفظة مجتمع. وكان كلما ضحكنا، إنتظرنا لنخرج من نوبة الضحك، وراح يسألنا عما يثير فينا هذه الكمية من الضحك عندما نسمع كلمة مجتمع، فنعود أنا وجابر إلى نوبة الضحك من جديد... نوبة أطول وأعمق وأدسم وألذ... حتى نهلك من التعب... وحتى ييأس الطبيب، وحتى يأخذ الآخرون بالضحك مثلنا... أو يضجرون فيقوم كل إلى حاله ويصعب بالتالي لمّ الشتات.

ثم قرّرالطبيب الجديد أن يستغني عن المجتمع، وصار يستبدلها بالأهل والناس والخارج. لكن أعضاء الجلسة كما رحنا نسميهم أنا وجابر، كانوا أحياناً يستحسنون إستعمال

اللفظ لإعطاء فكرة جيدة عن أنفسهم للطبيب، فيفلت من جديد زمام الأمور. ومرة سألنا الطبيب بم نحب أن نستبدل كلمة مجتمع فقال له جابر لماذا نستبدلها إننا نحبها كثيراً، وهي تسعدنا. وعندما ألح قلنا له إذا أردت نقول الأمة، أو القوم أو الشعب ثم اتفقنا على لفظ محايد كألفاظ الطبيب، وصرنا نقول: الناس في الخارج.

والحقيقة أننا ما عدنا نقول شيئاً، لأننا أنا وجابر لم نكن نشارك فعلاً في الجلسات. جابر بلى، من وقت لآخر لكن أنا ضجرت بعد حين من سماع كلام الآخرين. من الأسئلة والأجوبة. ومن الدرامات الصغيرة الكئيبة. صرت أتساءل، هل يتسلّى هذا الرجل بهم، ولماذا لا يتركهم لحالهم، وما الذي يريد إفهامهم إياه؟ كان يبدو لي سادياً دون مبرر. آتياً من عالم مغاير ومختلف وغير حقيقي. غير مجدٍ. لا يعرف عنّا شيئاً. عنيداً قاسياً ومنحرفاً. فيه فساد صغير كامن. حشرياً وبصاصاً متلصصاً يحتقرنا عميقاً وليس فيه حتى رحمة المرضين الموسميّة. وأحياناً أشد تعنتاً وأذية من المحاربين خارج أسوار الحديقة. وأعرف أني أبالغ.

يفتح دفتره، يحمل غليونه المطفأ بأصابع بيضاء رفيعة. يبتسم بنبل داخلي رصين، وعينين نافذتين، ويتكلم بتؤدة، بصوت خفيض متفهم وصبور. ويروح يكتب ملاحظاته بالأجنبية.

سألني مرة لماذا لا أتكلم فلم أجب. ثم قال لي ما رأيك بما يقول صديقك؟ قلت ليس صديقي، وليس لي رأي. قال لي بم تريد أن نتحدث فسكتُ. كرر سؤاله فشتمته. قلت له أو تتركني في حالي أو تروح تنـ . . . وحين حدّق إلي مبتسماً، قلت له أنا لا أريد حضور جلساتك. قال بلى ستحضر

جلساتي. قمت عن كرسي حملته، وهجمت عليه. ردّ الضربة بمهارة وخفة، ولوى ساعدي. عرفت إذ ذاك أني أكرهه عميقاً، وأني أقتله لو إستطعت، وصرت أحلم له برصاصة طائشة، أو أنساه تماماً.

ربما بعد ذلك لم أعد أرى جابر كثيراً. ربما بسبب كرهي العلني للطبيب الجديد، صار جابر يتجنبني. نسيت. لعله كان عند أهله لفترة طويلة. لم أعد أذكر. لكني كنت في غرفتي أتذكر بين حين وآخر بأني لا أرى جابر. بأني لم أره منذ فترة طويلة.

وبعد فترة، وجدت نفسي في الجلسات من جديد. لكني كنت أشد تعباً، وأقل قدرة على تذكر كراهيتي للطبيب الجديد. صار يقبل أن أبقى صامتاً، وألّا أردّ عليه. ومرة قال لي كن عدائياً حين ترغب لا بأس، لا تخف لن أزعل منك. قلت له لا تكلمني هكذا، أنا لست طفلاً، وصار يجدر بك أن تفهم بأني لا أحب الكلام، ولا الجلوس مع الآخرين. مع المجتمع. فلم يرد عليّ وظل يُحضرني إلى الجلسات وينساني، فأنساه.

ومرة أجلسني إلى طاولة، على حدة. أعطاني أوراقاً وأقلاماً وقال لي أكتب أو أرسم... خربش ما تريد. سأتركك لوحدك.

كان ينقصني هذا يا الله.

كان ينقص قطيع الرب، الذي يحقره الرب أن يكتب وأن يرسم. كانت تنقصنا البيوت القرميدية والأشجار المدورة الخضراء، والحمامة البيضاء، حاملة غصن الزيتون، التي ترفرف تحت برتقالة الشمس ذات الشعيرات الواقفة. معارض لرسوماتنا، نحن الهبل والمعاقون والأطفال.

ينتج لنا، هؤلاء المباركون، ينتجون لنا في حربهم، السلام

الذي يلاثمنا، ينتجون بنتاً صغيرة إسمها ريمي. . . كإسم الولد اليتيم المعذب في الحكاية العالمية الشهيرة بعنوان «بلا عائلة». ريمي بلا عائلة بلا وطن، وبلا سلام. تلبس ريمي فستاناً شفافاً رقراقاً بريئاً، أبيض، ويتجمع حولها الأولاد، تدور بينهم مرفرفة بلا جناحين. ملاكاً يتيماً حزيناً، يديره مخرج ذكي ابن شعب يتميز بحدة الذكاء، بالذكاء الخارق الذي قلّما منّ الله بمثله على خلائق المنطقة. . . وغيرها من المناطق. حولها الأطفال، الأبرياء، ضحايا الحرب والتقاتل، متحلقون وهي تدور بينهم تلاطفهم كأرتيست في الخمسين من عمرها. شعب فذّ وأطفاله ضحايا. إنهم يفسدون البذرة في الأرض. نحن نفسد البذرة في فكرة الثمرة قبل أن تينع، في نيتّها في اليناع. السبّاقون دوماً. نهضة جديدة على مستوى نختتم بها القرن، ووراءنا ستجيء بلدان، وأقاليم ومدن. هنا وهناك وهنالك. ما نصّنعه اليوم، سيتكرر بشكل مدهش على شاشات وفي كتب، وخرائط، وكاسيتات. إنتظروا قليلاً، وسترون كيف ستفرقع الأقوام والحدود الآمنة المستتبّة في غطرستها، كيف سنُدخل الأبجدية الجديدة عصراً جديداً. مختلفاً وجميلاً. ستأتي أقوام وبلدان ومدن لم تسمعوا بعد بإسمائها. سترون.

«أقعد لوحدك أنت المعذب المخطوف. خذ وقتك. كن شاهداً على العنف» يقول لي الطبيب، أنت الذي يتفجر جسمك عنفاً، ويشتعل رأسك بذكرى القتل، ورغبة تكراره بلا حدود أو نهاية. ارسمْ ولوّن.

ارسمْ حمامة بيضاء تتدلى من جناحها نقاط حمر. وغصنٌ أخضر. سنحممك ونمشّط شعرك. وسنعمل لك معرضاً كبيراً بضجيج. في دير الصليب.

|٩|

تلك هي الخطيئة المميتة.

أن تصارع الوقت. أن تصارع الوقت. أن تنسى وتستسلم لطبعك. أن تنسى في أية لحظة كانت بأن نجمة الصبح، هذه التي نظرتْ إليها كثيراً عيونٌ باكية أو مطفأة بعد نزع أخير طويل، عند تشقق طين الليل في أرق أو رجع أو خوف، عيون فارغة بيضاء غادرها الولف وغادرها ظلُّه، أن تنسى أن هذه النجمة، التي قالوا لها كثيراً وتقول أنت: إيتها النجمة البعيدة الجميلة أضيئي في قلبي، أضيئي في قلبي قليلاً، الآن ثم إنسيني، إن هذه النجمة قد إنطفأت، وماتت قبل ميلاد المسيح ببضعة آلاف من السنين... وأن ما تنظر إليه الآن هو الوقت الضائع بعد الفوات، هو النور الآتي قاطعاً. ما زال المسافة الى عينيك. مسافة طرفُها الآخر في العتمة والعدم. أنظرْ إلى نفسك ناظراً النجمة التي ما عادت. ثم إذهبْ

وانسَ.

أنظرُ إليها، وأعرفُ أنه جريان الوقت. أعرف أني، وأنا ألهث ستبدأ ـ في الطرف الآخر من خيط المسافة ـ تضجر مني... كيف إذن أصوغ جملتي لأجيبها حين تقول لي أنها راغبة أن تجد عملاً...

هل بدأتِ تضجرين؟ لا، ستجيبني. لا، أجابتني مبتسمة. لن أسألها ألأني كريه؟ هل ينقصك مال، سألتها. سكتت. لا تريدني أن أعطيها مالاً... بداية تفتح بذرة السلطة، الإمتلاك، الإدارة. النساء يفكرن الآن، ويرغبن بقطعة لهن. قطعة من العالم الجميل لنديره وندبّره مثلكم. كنَّ يحفظننا من الجنون والإنحراف. الآن سيفعلن مثلنا، وإلى الجحيم القلة الباقية من توازن الأرض. النساء سيكن القصاص الحقيقي. من له يُعطى ويُزاد. سوف يشبهننا. الآن لنرى أنفسنا. كما حين يكبر الولد ويُري أباه ميراثه من الجينات. أنظر إليّ في عقوقي. فأنا أشبهك إلى حد أني أبنك. وتعال نحصد سوية.

حسناً. ولكن ماذا ستعملين وأنت بلا أوراق؟ ولماذا يعطونك عملاً، ولا أحد يعرّف بك؟ وأنت لا تريدين حتى أن يعرفك أحد. ستنزلين كل يوم إلى العاصمة وتعودين؟ ماذا تريدين؟ أنت حرّة.

لم أنتظر أجوبة مفصّلة وخرجت.

أنت حرة. أنت حرة. ماذا تريد هذه المرأة. قل لأي أمرأة أنت حرة وسترى ما لا تعرفه هي إلا بالفطرة أو الغريزة. سترى أن الأمر كله لا يتعدى كونه لعبة الخروج بجسدها إلى العلن. إلى الواجهة والإحتمال. ذكر واحد لا يكفي مهما كانت عاشقة. ليس لفعل الجنس إنما إلى نزق اللعب والرعونة

الخفة والمزاج. ولو كانت تقرف أجسادهم، أو تنهيها أخلاقها، أو ذاكرتها المحكمة، تبقى العيون تلك هي الحرية التي ستطيح بنا حين سنخرج جميعاً إلى العلن، إلى الشوارع العريضة الجميلة المضاءة بقوة. نحن وهنّ والكارثة المحققة في أن يشبهننا العيد.

في الساحة وقفتُ تحت شرفة أتقي المطر. أنظر إلى حباله في ضوء مصباح البلدية. هذه الليلة عندنا كهرباء، لكن نوافذ كثيرة بقيت مطفأة. كثيرون عادوا إلى العاصمة، وأدخلوا أولادهم إلى مدارسها لكن بيوتهم هنا جاهزة مجهزة مرمّمة ليعودوا عند أول إشارة، ولو أنهم يعرفون أن القرية غير آمنة، وقد قامت بواجبها، ونالت حصتها من المعارك الضارية التي لا شيء يؤكد أنها لن تعود. إلا أنهم لا شك يعلمون أن المناطق تتناقل الحروب مداورة. أم تراهم خفية يرغبون لقراهم بأمان واهم، ولا خيار لهم في رغبتهم تلك.

ساحة القرية، ليلاً، في الشتاء. لا أحد ولا حركة. لكن الروائح والأصوات تختلف الآن. حتى الروائح والأصوات. المداخن لم تعد ترسل الأبخرة نفسها في الهواء العمومي المثقل بالرطوبة. لأنهم الآن، ومع إرتفاع وأثمان الوقود، كل الوقود، يحرقون أي شيء في مواقدهم، ويحرقون ما هو قابل للأحتراق مما تشلع وتهدّم في المعارك الأخيرة. درف شبابيك، وأبواب وكراس، ورفوف، وربما بعض الخشب الذي صاروا يحطّبونه بأنفسهم من غابات قريبة آخذة بالإنحسار... أيضاً لم أعد أسمع صوت المطر نفسه، بعد أن ضاقت الطرق، والساحة خاصة بعمار سريع عشوائي لسكان المدن البعيدة الذي داهمهم الحنين على حين غرّة، فراكموا له باطوناً طازجاً صلباً لا يهتز أو يتناثر كالقرميد الهش شبه المفقود والفاحش

الاثمان. كأن هؤلاء الذين داهمهم الحنين على حين غرّة، قد غُدروا قليلاً في مشاعرهم ومدخراتهم، كَمَن تعود إليه عشيقة قديمة نسي وجهها، لتحاسبه الآن وتتطلّب.

ما الذي يغري الكلاب بالخروج في الليل الماطر. ربما الأرق فالكلاب لا تنام. فقط تكبو، وتستفيق راكضة لتحرس أي شيء. ليست لها أخلاق الحارس، إنها تحرس لأنها لا تنام. تحرس سهواً من طبيعتها، ضجراً.

وتخرج الكلاب في الليل بحثاً عن الاناث. الأناث بحثاً عن الذكور لذا لا تنتبه حتى أن مطراً غزيراً يهطل الآن على فرائها الحارّة التي ترد الماء بخاراً. تصفن قليلاً. تفتح أشداقها، وتركض في العتمة. لا تنتبه للعتمة، لأنها ترى ما تريده. ولأنها ترى ما تريده وتلحق به، فالكلاب لا تخاف.

طفلاً، كنت أخاف من الساحة الواسعة الغارقة في العتمة. أتعلّق بيد أبي، ونحن نعبر أمام الكنيسة، وأسأله عن أي شيء لأسمع صوته. تكلم يا أبي ليشبه هذا الفضاء ذاته التي نعرفها له في النهار. تكلم يا أبي لتميع وتنقشع لزوجة الليل أو غنِّ موّالك عالياً في أول النزلة لنفك أقفال العتمة، ونتعرّف إلى الجدران الموصلة إلى البيت. علِّ علِّ ليعرفك فراغ قفا الكنيسة وصور قديسيها الأشداء السيقان، ليبقى في صورته مار الياس الحيّ، الذي يدوس الشيطان مفنجراً عينيه بي، وهو سيهوي بسيفه الكبير على عنق زعيم الكفار، ممسكاً بشعر رأسه. لكي لا يعود الآن مار الياس الحي الذي سيعود.

ينطفىء ضوء المصباح. أعرف أني أطلت المكوث في هذا المكان وأرتجف من البرد.

عدت إلى البيت سكران ومبتلاً. لم تكن نائمة، حملتْ منشفة واقتربتْ مني، وهي تسألني أين كنت حتى الآن.

دفعتها بيدي دفعة قوية. تعثرتْ ولم تقع. التقطت شيئاً عن الأرض، شبكت به شعرها وقالت لي: أياك أن تفعل بي هذا ثانية.

وأنا أتقيّأ فوق المرحاض، كنت أتساءل ما الذي تقصده بألّا أفعل «هذا» ثانية: ألا أسهر للصبح وأعود سكران مبتلّاً لا تعرف من أين، فأهدر صحتي، وتقلق عليّ سهرانة طيلة الليل، أم ألّا أدفعها بيدي.

حين عدت إلى قربها كان الفراش دافئاً. قلت لها لن أعود إلى هذا ثانية. لم تحمل المنشفة لتجفف بها شعري، ولم تستدر ناحيتي. وقبل أن يأخذني نوم الإنهاك، فكرت أن لهذه المرأة أيضاً ساحة معتمة تمطر الليلة فوق مصباحها، وأن لها صوت أب يرتفع، كان ليسير بها في الليل. وأن لها ذكريات كثيرة، لا أعرفها ولا حول لي ولا قوة حيالها. وأني في السنوات التي مضت لم أكن موجوداً. وأني في السنوات التي تلت لم أكن موجوداً كذلك. وأني كالقاعد في خرم الإبرة. بين الاشفاق عليها والحنق العارم، إذ تذكرت أيضاً أنه في هذه السنوات، وفي السنوات الأخرى عرفت هذه المرأة رجلاً غيري.

قبل أن يأخذني نوم الإنهاك والغضب، مددت يدي إلى زندها فنفضته وردت يدي. كانت تلك المرة الأولى. رفضتني.

قبل أن أنزلق في النوم غصباً عني، رحت أركض في الساحة محدثاً جلبة كبيرة... كنت أدق أظلافي في الأرض، فأحفرها، وأنفخ ناراً من منخري فأثير الغبار والتراب. كنت ثوراً كبيراً هائل القوة راكضاً خائراً مالئاً الساحة الفارغة، كاشطاً ليلها بقرنيّ العظيمين. وكنت غير منتبه إن كانت تمطر أم لا.

|١٠|

ثم صارت البذرة تينع، وامرأتي تسترسل في البعاد.

صارت، حين أتكلّم إليها تسمعني كالآخرين.

تقف كالحارس الأمين لتلتقط الإشارات التي تنتظم كلماتي في جمل ذات دلالة، وفي أفكار مفيدة ـ أو ضارّة ـ لها منطق مسبوك، حتّى ترد عليها. تنتظر مني، كالآخرين، دلالة لا معنى. الدلالة التي للكلام، لا المعنى الذي لي.

حين تتكلم، عليك أن تنسى كيف يسمعك الآخرون. لأن للآخرين أوعيتهم التي فيها تتمغنط برادة الكلمات المفروطة لتتخذ شكل الجمل التي سيردون بها عليك.

لا أحد يسمع صوتك كغناء. لا أحد ينصت لموسيقى حنجرتك، أو يتفرّج على دوائر الصوت تنداح كالأرغفة في السماء. لا أحد يسمع حركته طالعة من القصبة أو شعيبات الرئة، من شفتين ناشفتين أو من حنك مرتجف. يلتقطون

الكلمات بلا رنّات فونيماتها، ويشكّلون هندسة الرد. يجيبون للمحاسبة والفرز والتدقيق لأنهم يبحثون عن المضمر والمقصود. عمّا هو لهم، وعمّا هو ضدهم. عمّا هو ضدهم. عمّا هو ضدهم. عمّا هو لهم من عندك، وفي ذمّتك ربما من زمان. يتشبّثون بحبل الكلام الذي، ما أن يلوح طرفه على لسانك حتى يغدو ملكية بما أن الطرفَ الآخر بين أسنانهم.

أما أنا، فإني أعرف أنّ كلامي هراء. أحياناً كذب أو مواربة. مخاتلة لعب تنغيم. إن كلامي يقع عني، ويجلس بقربي كأشياء كثيرة، ربما هي لي، لكنها قطعاً ليست أنا. مثل صحني أو جوربي. وإني أتكلّم كمن يرفع رجلاً، ساعداً، ليرقص، ليملأ المساحة حركة أو ضجيجاً بلا ذلك الجدوى الأكيد الملزم كقانون لا سبيل للتنكر له أو التملص منه. بلا ذلك الجدوى الأكيد كقصاص، كدليل سوف يُستعمل في محاكمتي الدائمة المستمرة، تلك التي تُسمّى كلاماً مع الآخرين، حواراً، حديثاً. دائماً شيء يشبه المنافسة، القتال، القتل المتعمّد، أو المنافسة، الإضافة، التشّبه، التطابق، القتل المتعمّد. لماذا لا يكون لي الحق بإخراج الكلام بسلام وطبيعية مني كإفراز يريح جسمي، كالغائط أو المخاط أو ثاني أوكسيد الكربون ـ أو المسك إن كنت غزالاً مثلاً. لماذا لا يكون لي الحق بتشغيل آلاتي التي منحني إياها الرب على الشكل الذي أريد دون إحداث مبارزة أو مزيدٍ من الإرتياب.

لا أريدها مثلهم هؤلاء الذين راحت تشبههم. ولكن من أجلها، لا أستسلم بسرعة لعيائي الشديد. أقول لها لا تحاسبيني مثلهم. إستمعي إلى صوتي وفكّري بي بلا أفكار إن كنتِ تحبينني. ربما أقول لك اليوم شيئاً مغايراً، مناقضاً لما

قلته بالأمس. تلك إذن أغنيتي. مشيئة روحي في التجوّل والبحث، وألم النقض. لكِ أنتِ إذن لم أقل كلاماً ذا دلالة لا البارحة ولا اليوم. أخبرّتك إذن شيئاً آخر، خبراً آخر، بما أنه متناقض بين الأمس واليوم. خبراً عني لا أفكاراً تتخابط في النوايا السيئة. كذبتُ عليك، حسناً، أنظري إلى مصيبتي ككذاب وكمضطر للنفي والتملّص والنكران، للمخاتلة والتخلي. أسهل الأمور ألّا أكذب عليك. أسهل الأمور أن تلتقطي كلامي المتنافر، وتجمعيه، وتلصقيه ببعض وتقولي هذا كذب. أسهل الأمور أن تكتشفي فكرةً، تكذّب فكرة. قولاً يكذب آخر. إذذاك تكونين كالآخرين. إذذاك ترين كلامي، كذبي الذي لا أجهد في إخفائه جيداً، ولا ترينني. تفرحين لذكائك، وتتعصبين لنفسك. تصيرين كالآخرين فلا تحبينني. وأخسرك. وأخسر فرصتك في حبي. وحينها لن أتعلّم أو أتعظ. سأزداد كذباً لا صمتاً واستنكافاً. واسترسل في كذبي الذي إذّ ذاك سيكون أكثر إتقاناً، فلا يُفرح الآخرين باكتشاف هناته. إذذاك أقدّم لهم كلامي الذي يريحهم، ويشبههم، ويستوي الحوار. لا أقدم لهم صوتي. لا أقدم فمي الكاذب ذا الأغنية التي ترد إلى كامل جسمي.

لكنها راحت تشبه الآخرين وتحاسبني. وحين أحاول ألّا أقع في العياء السريع، من أجلها، تروح تنظر إلى كلامي بريبة المحتاط أمام فخاخ محتملة، كلما حاولت أن أفهمها مشكلتي.

حين قالت لي يوماً أنت لا تقيم وزناً لكلامي، لا تقيم وزناً للكلام بيني وبينك، تريد فقط أن تضاجعني، إن رجلاً لا يتكلم إلى امرأته هو رجل يحتقرها، ويحتقر النساء... حين قالت لي هذا يوماً كدت أبكي. جرحتني عميقاً، تعذبت

ليقيني بأنها لا تفهمني. لا تفهم شيئاً من ولهي بها ومن غرامي. تريد فقط أن تضاجعني. قالت لي مرة أخرى فأشحت بوجهي عنها، وامتلأت عيناي بالدموع. رحت أفكر بأن كل ما أعطانيه الرب من مسام في جسدي لحبها ومضاجعتها أفقده الآن، إذ هي تشكك به. أي سوء تفاهم أن ترى روحها في مكان آخر. في غير جسدها؟

إكتأب قلبي عميقاً جداً، حتى أحسسته مشجوجاً حقاً. مشجوجاً. ويؤلمني في صدري بشكل حسّي. انها لا تترك لي خياراً. أقفلتْ عليّ المنافذ فلم أرد عليها. وأنا أعرف أنها تفكر الآن بأنها حشرتني في الزاوية، وأبطلت حججي. بأنها كسبت جولة في المبارزة التي ركّبتها، وبأنها ستحملني إما على الإعتراف بخطأي أو على الأقل على مراجعة حساباتي المغلوطة، وأني بعدها سأصحح سلوكي، وسأتحسّن. بقيت صامتاً وأنا أرى أن المزيد من الأخطاء، آت متعاقب ومتتالٍ كموج البحر.

أقفلتْ عليّ المنافذ، فلم أرد عليها، وأنا أرى الخسارة باهرة في وضوحها. خسارة حسبانها بأن جسدها في مكان آخر. إنه ملك لها وحدها، وبالتعصب اللازم للحجز والمنع. وبأنها ستستعمله ضدي لتنفصل عنه جيداً وبالقدر اللازم وتقذف به في كثرة الأجساد المتشابهة، تلك التي للآخرين. تلك التي تُستعمل في الحروب وفي التكاثر.

يا للخسارة. سوف تحاربني أذن. وبالطبع لن أجد لي مكاناً خارج الحرب. ستلزمني بها حتى أختارها. كما يحصل في كل الحروب. منذ القديم وحتى الآن، وغداً. سوف ندخل الآن وقتها هي ونتحارب حتى نضطر لإتقان أدواتنا إتقاناً كاملاً ناجزاً. حتى نضطر للخسارة النهائية: خسارة أن

أردها إلى هذه الحقيقة الأولية البسيطة. بساطة المعطى لأنها معطى: أن روحها هي في جسدها. وليست في أي مكان آخر.

هذا ما رأيته وقد أعمتني دموعي، رأيت يقيناً لن تخلص إليه إلاّ في الخسارة المكتملة كهذا البدر الأحمر.

ثم...

لم يكن قد تبقى لي سوى أن أخسر الخطوات الأولى، عن قصد وتصميم، لعلّ معجزة تحصل. أن أتراجع مستعملاً كل الحنكة اللازمة حتى تتقدّم وتربح المسافة التي أُخليها.

صرت أحاول إشعارها، بأن بي حاجة للكلام إليها ومعها. وبأن لكل ما تقول أهمية كبيرة تستوجب الإنصات العميق، الفهم، والتعليق. صرت كذلك أقيس بمقاييس جعلتها للضرورة. أقيس متى يجب أن أناقضها في ما تقول حتى أعطي إنصاتي لها صدقية عالية. لا أوافق على كل شيء. أحتد، وأناقش وقد أزعل. قد أحرن كبغل، لا يعود عن حرنه الحزين العنيد إلا بالملاطفة. إلا بالملامسة الحنون. أتركها تلامسني حتى تختار هي بنفسها أن تشتهيني. أن تشتهي جسمي، وتبادر هي إلى إثارتي، لأنام معها، فيما أنا أفبرك صورة دقيقة الملامح لرجل غير مستثار تماماً، لأن رأسه مشغولٌ بالأفكار، وبصدى ما قالته حبيبة قلبه منذ قليل... رحت أُفلح لدرجة أني صرت أدفعها أحياناً برفق، وأُبعدها عني لأتابع الرد على ما قالته منذ قليل، فتزداد إستغراقاً في إشتهائها لي وتُسكتني، وأزداد أنا حزناً وقهراً على تشبّهها بأنماط شائعة، على إنزلاقها من بين أصابعي إلى كثرة أعرفها. تبدأ تضيع مني في جموع من أجساد النساء ذات الأفواه الكثيرة الكاذبة والملّفقة والتعيسة في أشكال ذكائها الصغير، وفرحها

بعبقرية الذهن الجديدة، الحديثة الإستعمال التي تفح منها رائحة أغلفة نايلون المعامل. الكثيرة الإنتاج. رائحة أغراض لمحدثي النعمة. وهم الأقوى، على الإطلاق، على الكفر بجمال الغرض وقيمته، وعلى استعمال بشكل يفقده كل ميزته، أو يسير به بقدرية قاطعة إلى ضدّ ميزته تلك.

كان حزني يدفعني إلى شوق استرجاعها من المكان العمومي.

كان حزني يخلّصني من عذاب مراقبة ذكائها الصغير، ويزيدني اصراراً على إسترجاعها إلى حبي لها، إلى روحها الأخرى التي تصر على خسارتها، إلى جسدها الأول. أكبح غيظي وشبقي وعنف رغبتي في إختصار ما أود قوله لها بفعل قوي واحد، وأروح أتأمل وجهها متحسراً على عدم إستطاعتها رؤيته وهو يتوهج بين يدي كما الآن. أتحسر على عدم قدرتي على تمكينها من إسترجاع الذاكرة العميقة التي لجسدها. ذلك الذي كان حراً وحاراً وكاملاً وخالصاً، في اللحظة ذاتها التي استدارت فيها بويضتها الأولى، في اللحظة ذاتها التي توقفت فيها الثانية الأخيرة من طفولة ذلك الجسد، في اللحظة ذاتها التي إنفجر فيها ألم حيضها المقبل، والذي ما زال كامناً، في اللحظة التي عرف فيها جسدها، قبل أن تعرف هي بأن الرغبة آتية. قبل أن تسمع عن جسدها وتتعلم وتقرأ وتحشو رأسها. قبل أن تنساه، وينزلق منها إلى أجساد النساء يتيه في الكثرة المقرفة التي للقطعان، قبل ذلك بكثير، لأني في تلك اللحظة أحبها، لأنها في تلك اللحظة هي أمرأتي دون سائر النساء.

أكبح عنف رغبتي وأنشط في فعل التذكير، في فعل الاسترداد اليائس على مهل أنزع ثيابها، على مهل لكي تسبقني

لأني لا أريدها أن تلحق بي. أفتح لها أبوابها لكي تخرج هي بنفسها منها إليّ.

أمرر كفيّ من تحت الثياب، من عند خصرها إلى كتفيها. أرد قميصها إلى الخلف ثم أسحب الكمين. ألصق باطن كفيّ باستدارة كتفيها، ثم أتبعهما بحركات دائرية، وأنا أنظر في عينيها نصف المغمضتين. نصف أغماضة كمن يحاول أن يتذكر. وحين تقدم جذعها، أنزل بيدي إلى ثدييها. أجعل باطن كفي مخروطياً لتلامس قبّتُه الحلمة الباردة، فأسرّب بقبقة دمي إلى باطن كفيّ الساكن، لعلّ حلمتها تتذكر اللحظة التي بزغت فيها للمرة الأولى عن سطح الثدي الذي يروح يعلو من نفسه إلى باطن يدي، ليملؤه ضاغطاً عليه...

أفرح بها، وأنسى إذ ذاك حزني. ألصق جسمي بجسمها على كامل المساحة، حتى الساعدين واليدين، حتى نصير على شكل صليب، وحتى أستطيع أن أضم باطن قدميها بظاهر قدميّ، وأعجب لتناسق طولينا، قامتينا. أفيض عنها بالقدر اللازم الذي يجعلني قادراً على تغطيتها ومنع البرد عن عريها، وقادراً في مساحتي المتبقية على ضمها في كامل جسمها وإلى آخره.

تضيق بي. تضيق بي حين أبقى طويلاً. تأخذ بالحشرجة المصطنعة الضاحكة تشتكي من ضيق تنفسها ومن عدم إحتمال وزني. ذلك لأنها تنسى. تنسى أنها كانت منذ قليل تتنفس مني، ملء رئتيها.

حين تميل إلي وتحاول الإلتصاق بي، أضع ساعدي موازياً، حاجزاً، فتفهم أني أريد الآن أن أكون وحدي. تعتقد أني أرتاح، وأسترد أنفاسي. كيف لا تتساءل الآن. وأنا أتركها تسير إلى حيث تريد أن تكون، في الأمكنة العامة التي لا ذاكرة

لها.

لكني أنا أتذكرّ. أتذكرّ سبب غرامي بها أول زمان تكوني. حين كنت جنيناً اولياً، في الشهور الأولى، حين كانت كروموزوماتي كلها مؤنثة. كلها «XX» وقبل أن تدخل «Y» في شهور سكناي الأخيرة في بطن أمي وتحولني الى ذكر. حتى ذكراً كنت سابحاً في مياه الرحم الانثى وحتى ذكراً لم تكن ذكورتي معطاة. أتذكرّ ما قبل نضالي المستميت لأن أكون رجلاً قبيل ولادتي وبعدها، وبعد بلوغي. وهي تنسى.

أنا أخسر، وهي تنسى أن روحها ليست في مكان آخر.

١١

أعرف، حين أعود من نسياناتي الكثيرة أني لن أراها ثانية.

أتساءل في أي بقعة مشمسة من الحديقة كنت أراها جالسة في دائرة متقشفة، بين ستائر المطر الرمادية. أمشي في الحديقة إلى قبالة نافذتي. أنظر فلا أرى نافذتي. لست أكيداً أبداً أن هذا المربّع هو نافذتي إذ لا أرى نفسي خلف زجاجه. والمربّعات تتشابه كثيراً. النوافذ تتشابه كثيراً من الخارج.

أعرف كذلك، حين أعود من نسياناتي الكثيرة أن فصولاً سارت، أن فصولاً تعاقبت ومضت. أرى أننا في الربيع لكثرة العشب، ودفء الهواء، ونشاف التراب. وحين أعود إلى الوراء لأرى نفسي في الفصل السابق، لا أجد أني نسيته بكامله. وأخمّن أني قضيته ربما تماماً كالشتاء السابق، فلم يبق منه ما أذكر، لم يبق منه ما يوصلني إلى الربيع الذي يحيط بي الآن.

تنقصني فصول بأكملها لكني لا أحزن لنقصانها. أخمّن أنها مضت رائقة هادئة متشابهة. لكن ما يثير حنقي هو نقصان أشياء لا أعرفها. تعوزني ولا أعرفها، ولا أعرف كيف أتجه للبحث عنها. لا أعرف هل هي في أشياء وأغراض أم في جسمي وملحقاته وإحتياجاته. أشياء تعوزني ولا أعرفها.

لذا أتوتّر أحياناً على نحو مفاجىء حين يرتفع فيَّ إلحاحي ويصبح مضنياً. أروح أنظر في الأرض وأمشي، أبحث فيها. أبحث بعيني ثم أروح أحفر برجلي فأقلب حجارة صغيرة، وأزيح التراب. أنحني وأرفع ورق الأشجار وأكوام الغبار المتقطّن عند جذوع الأشجار. محموماً أقول سأجد شيئاً. أنسى أني أبحث عن أشياء بي حاجة إليها وتنقصني. محموماً أقول سأجد غرضاً نسيه الناس. سأجد لي ما قد يكون سقط منهم سهواً أو أضاعوه ومشوا إلى غيره. لأن لهم غيره كلما مشوا. لأنهم ليسوا مثلي أنا الذي أعرف أني لن أرث من حياة أهلي أو موتهم. وأني، لن يمنحني أحد مقتنى له يقتنيه، أو إقتناه. يتواتر إشتهائي لأن أعثر على شيء. يتواتر إشتهائي، ويروح يسحبني، يشدّ خطواتي، ويوقّعها أو يضرب إيقاعها، فأمشي في كل إتجاه كأني ذبابة تطير.

أتشهّى في نفسي أن أجد جزءاً، قسماً من شيء. شيئاً ناقصاً منقوصاً. الناقص ليس لأحد، ولن يطالبني أحد به، إذ لا تثبت الملكية الاّ في كمالها. في وحدتها وتماسكها. ما يكون جزءاً من إنفراط وإنكسار وتفتت، لا يكون لأحد. أتشهى أن أجد ولاعة دون حجر القدح. مزقة من جريدة أو لمبة فقدت معدنها. قلماً دون ريشته، كرةً مثقوبة دون هوائها. كرة دون هوائها، أو لا يحيطها هواء قد يدخلها. يدخلها ويعيد نفخها. كرة دون رئتها، أو رئة ليس بداخلها هواء.

أتشهّى مثل هؤلاء السائرين في الحديقة النظيفة تماماً أن أجد غرضاً لا يطالبني به أحد. لأتعصب لامتلاكه حتى الموت. كما حصل لجابر حين وجد يوماً غلاف رصاصة كبيرة من نحاس قرب جدار الحديقة، وأبى أن يتخلّى عنه. تجمّع عليه المرضون. لا باللّين ولا بالقسوة. ضنّ به كنور عينيه. إستمات وهو يجمع كامل جسمه حوله ليحميه. أبداً، كان يزعق، إنه لي. ونحن حوله كنا نصرخ مشجعين إنتبه يا جابر، لا تعطيهم الرصاصة إنها لك. كنّا كلّنا نأمل أن يحتفظ بالغلاف النحاسي الكبير، ونمّني النفس أن يسهو عنه يوماً فنسرقه منه، أو هكذا خُيّل إليّ من نواياي.

لكن هذا الغرض الجميل ضاع من جابر. أخذوه منه في شراستهم وتعصبّهم، وعصابهم للنظافة واللملمة والتفريغ. في تزليطنا من كل غرض نحبه ونريد الإحتفاظ به. نريد الإحتفاظ به، ونحن نعلم أنه ناقص ولا ينفع لشيء. ننتقيه لأنه كذلك. نختاره لشدة تواضعنا وتخلّينا. لأنه من نفاياتهم التي أنقضت فائدتُها، كلّ أشكال الفائدة. ومع هذا لا يطيقون رؤيتنا مع ما نملك. يعتقدون أننا سنسترد عافيتنا بتعرّينا وبفراغ ما حولنا ولنا. كما رأت أسماء في إحتفاظي وضنّي بغلاف لوح الشوكولا الزاهي اللون دليلاً على إستمراري في مرضي. وكلما راحت تقنعني برميه وبعدم فائدته، إزددت توتراً وإصراراً وخوفاً على ضياعه، واستغرقت في تمليسه وطيّه وتدبيب زواياه، واستغرقت في دهشتي من إصرارها الكريه على رميه، وفي تساؤلي عن لزوم زيارتها التي تقضي نصف مدتها في إقناعي برمي ما يعزّ عليّ إلى هذا الحد. إلى الحد الذي صار يجعلني إستفيق في الليل جزعاً باحثاً عن الورقة اللامعة الخضراء، حيث بقرة بنية تبتسم في

حقل من حبات البندق.

أعرف أنه تنقصني فصول بأكملها لكني لا أحزن لمعرفتي. وأتساءل أحياناً، ممدداً على المقعد الخشبي في الشمس الطريّة ومتأملاً أظافري البيضاء الرقيقة، أتساءل عمّا تراني أحب أن أعثر عليه في بحثي المحموم الذي يهدّ جسمي لساعات حين يداهمني هكذا على حين غرّة. أقول معاتباً نفسي، أني ما زلت أتصرّف وكأن المستشفى مكان للعبور لا للإقامة. أو كأن غرضاً ناقصاً لا حاجة لأحد به سوف يشعرني بأمان الإمتلاك، ذلك الإمتلاك الذي يشبه أن أعود إلى الخارج، إلى حيث رعيّة الرب المحبوبة المختارة.

دلواً دون قبضته، دون اليد، حقنة دون إبرتها، دون العرق، رباطات دون حذاء، دون القدم، دون خطوته، ثدياً دون امرأة، دون انتفاضه تحت يدي.

كالحليب، كالحليب.

كالحليب تطلع فيَّ هذه المرأة. كالحليب يطلع في ثدي المرضعة، ويبقع أرديتها، يطلع غيابها فيَّ. أبحث محموماً ربما عن ثديها دونها لأني أعرف منذ تركتني في المرة الأولى أنها لن تعود. لن تكون. وفي غياب ثديها النهائي يطلع فيَّ حليبها الحار متدفقاً من يدي ورأسي.

يا الله يا الله. كيف تركتني حين تركتني.

حين هبط الليل كثيفاً، ولم تعد الى البيت، عرفت. قالت لي أسماء: إنه القصف الكثيف لا الليل، منعها من العودة. ثم قالت لي أسماء: ما كان ينبغي أن تردّها بالقوة تلك المرّة، ذلك النهار الحار، على الحاجز الكبير، فهي قد أخبرتني. لكنها الليلة لن تعود بسبب القصف. ستعود غداً، سترى.

تمنّيت لو ماتت أسماء مع أمي حين ماتت أمي. تمنيت لو

ماتت أسماء وبقيت أمي. أو أبي. لو ماتت أسماء.

والآن. ها أني جالس في كنبتي أُعمل معرفتي بأنها لن تعود، وبأنها تركتني وعادت إلى أهلها. كان القصف يتعاظم، ويتعاظم نسياني له، وكذلك وحشتي، بعد أن نزلت أسماء من الشقة الى الملجأ مع جيراننا في البناية. كنّا في العاصمة.

الآن. أنا جالس على كنبتي أُعمل معرفتي بأنها ليست هنا. يفرغ منها رأسي وجسمي وأُعمل معرفتي بفراغي. أُعمل معرفتي بفراغي لأختصر الوقت الذي سيسير فصاعداً فارغاً منها. أُعمل معرفتي بفراغي.

يصلني في رأسي الفارغ رنين هاتف بعيد. رنين صاف متواصل متخلّص من هرج القصف ودوشته. رنين صاف وخافت وواضح ومستقيم إليّ مباشرة. رنين طويل ولا يتوقف.

أدخل إلى حيث الرنين. في العتمة التي تشبه الغيب اللطيف أجلس قرب الهاتف وأرفع السماعة.

آلو... أقول آلو. أسمع صوت امرأة. صوتاً متعثراً مدهوشاً.

تقول المرأة ان صوتي ليس صوته، لكنها فرحة بي. تقول أنها منذ سنوات طويلة لا تكفّ عن طلب الرقم وعن سماع الخط الطويل الذي يرنّ في البيت المقفل الدرفات. تعرف أنه غادر. أنه ترك بيته مقفلاً في عتمته، لكنها تطلب الرقم باستمرار لكي تستطيع تصوّر البيت وتذكّر تفاصيله. فحين تعرف أن الهاتف يرنّ في الداخل تستطيع رؤية الهاتف، ويقظة الأشياء التي تحيطه بفعل الرنين الطويل. تسترجع أثاث البيت كاملاً في عتمته التي تحبها، وتتأكد وتطمئن على فراغه

من صاحبه، فهي بحاجة لمعرفة هذا الفراغ والتأكد منه، بحاجة لتحسس الرجل الغائب لأنه السبيل الوحيد لتذكّره. تقول لي أن الرنين يصير عندها كالصورة الفوتوغرافية التي تدلّ على صاحبها، وعلى غيابه في الوقت نفسه. وأن متعة سماع الرنين هو في متعة إستذكار الرقم وفي متعة طلبه كأي رقم آخر من الممكن أن يرنّ في إذن من نطلبه. أطلبه هكذا، تقول لي، وكأنه موجود. وأتمرّن على إستذكاري الرقم الذي أعرف تماماً أنه لن يرد على رنينه. متعتي صوت الرنين يهز البيت، ويجعل داخله يستفيق بي وكأني أنا نفسي في الداخل.

ذلك ربما لأنه تركني دون أن يخبرني. علمت من حارس البناية الذي يحرس بيته من هجمات المهجّرين أنه سافر ولن يعود. كمن يموت دون أن يرى الموت قادماً. دون أن يعرف ولو لثوان قليلة. هؤلاء، يقولون، يمكثون بيننا لوقت طويل، ينظرون معنا، إلى جانبنا، إلى موتهم ويتفرّجون عليه. ويلزمهم وقت أطول بكثير من ذلك الذي يلزم أحباءهم للتصديق والإذعان.

يوماً ما سأتوقف عن طلب الرقم وسماع الرنين الطويل، تقول المرأة. سأتوقف عن ذلك حالما تكف رغبتي وتتعطّل. رغبتي في أن أرن داخل البيت وأوقظ هواءه الراكد، رغبتي في أن أكف عن رؤية الأثاث اللطيف الذي حولك. أرجوك أن تخبط قليلاً على الأرائك النظيفة حيث سأخلع حذائي وأتمدد الآن لأني أحب أن أندف قطنها الطريّ كما أفعل دائماً. سأرفع قدميّ على الطاولة الخشبية الواطئة، وأُبعد تماثيل الكريستال المنمنمة. بحافة قدمي اليمنى قبل أن أزفر عميقاً، وأنا أتحسس مخمل المقعد الحريري وتقعّره الخفيف تحت وركيّ.

الفصل الثالث

|١|

حين صارت تلك المرأة بيتي وأهلي عرفت أني فقدت بيتي وفقدت أهلي لأنها لن تكون أياً منهم.

لا تستطيع إمرأة ليست من أهلك أن تكون أهلاً. تستطيع فقط أن تفقدك إياهم. لأن دمها هو لذكرياتها، ورحمها لناس سيجيئون ليصنعوا معها بيتاً لها. تقرع بابه فيسألون من الطارق قبل أن يزلقوا المزلاج.

مكثتُ طويلاً. مكثتُ حتى فقدتُ كلَّ ما كان لي.

شقتنا في العاصمة، لم تعد البيت الذي شغلته أمي. لم يعد يشبه ذلك الذي كنت أعرفه غيباً، وأنا أركض في مماشيه، وارتمي على مقاعده. تلك الرائحة الصغيرة، التي كنت أشتمها وأنا أصعد الدرج عائداً منهكاً «هفيان» من جوعي، إختفت تماماً. لم تغيّرا، هي وأسماء، كل شيء دفعة واحدة. كنت كلّما رجعت إلى البيت أجد فيه إضافة أو نقصاناً.

وكأنهما بذلك تلهيانني وتخدعانني عن استيلائهما على البيت.

أسماء صارت كأنها أختها هي لا أختي. حين ترى أمتعاضي تعتقد أن السبب هو المال الذي تصرفانه على اللعب بألوان ومساحات البيت دونما حاجة حقيقية. تفترض أسماء أنها تساعد في التأسيس لسعادتي وفي بنيان عش غرامي، وتثبيت ملكيتي فيه، حتى يغدو بيتي لا بيت أهلي. لكنها تأتيني بحجج واهية لدرجة يصعب على الأبله تصديقها، كأن تقول أن القصف الأخير الذي طال شقة الجيران وتسبب في إنهيار زجاج النوافذ كلها قد مزق الستائر القديمة التي لا يمكن رتقها، أو كأن تقول أن إنهيار جدار الصالون الغربي، وبقاء البيت فاغراً إلى الشارع طيلة المدة التي قضيناها في القرية، قد ذهب نهائياً باحتمال غسل وتنظيف قماش المقاعد فوجب إستبداله، وبالتالي تنسيق الألوان الجديدة مع بعضها، وشراء درسوار جديد صغير بدل ذلك القديم المهشّم الذي لا يمكن لأي نجّار في العالم إصلاح خشبه بكلفة معقولة.

لكن أسماء إمرأة مثلها. مهيأة مثلها للنسيان والإستبدال والقفز إذ هي تعرف بالغريزة أن ذاكرتها هي برسم الإستبدال ولا يهمها أن تترك أهلها، وتغيّر إسمها، وتسير. تخلع وتلبس وتسير. ربما لهذا تنجح النساء كثيراً في مجال الجاسوسية، إذ لا تروح جذور أصولهن بعيداً. ربما لأن طفولتهن دائماً قادمة حين سينجبن.

كيف كان يمكنني أن أواجههما أو حتى أن أحاول التشكّي أو الإعتراض. حين أراهما متقاربتي الرأس تتوشوشان، وتتضاحكان في زوايا البيت، متفقتين بالإشارة ودونما حاجة للكلام. كنت أتساءل كيف لا تخشى أسماء منها وهي ترى توترها، حين يهدأ القصف، وتنفتح الطرقات

على المعابر بين المنطقتين. كيف توقن أسماء أن هذه المرأة مقيمة ولها هناك أهل وقوم وزوج ولا تذكرهم إلّا في توترها الخفيف، حين تعرف بأن في إمكانها العبور والذهاب إليهم. وكيف تفهم أسماء أن تترك هذه المرأة كل مالها وأن توحي - لإنقطاعها الطويل - بموتها لأهلها، وتحتمل ذلك. تحتمل أن يعتقدوا أنها ميتة، ولا تملك شجاعة إخبارهم بأنها هنا وبأنها اختارت البقاء. من أجلي. من أجلي أنا الذي تستميتان كلتاهما كل يوم في حبي، وفي سلبي هواء البيت ووقته. ذلك الذي كان لأمي والذي صارت حركتي فيه مشروطة بتوزيعه الجديد. الهجين. النغل.

أسماء البلهاء كانت تعتب عليّ حين لا أكون لطيفاً. كما تقول. كما حين لم أحمل معهما الدرسوار القديم، بعد أن خلّعنا درفاته ليسهل حمله والنزول به على الأدراج. لم أعاونهما على رميه في البورة القريبة. بقيت أياماً طويلة أتفرج عليه من خلال الزجاج، تحت الأمطار القوية، تنتفخ أخشابه وتحت الشمس الساطعة تتفلّع قشرته التي كنت أتمارى على لمعانها، حين أختبىء تحت الطاولة الكبيرة لأثير هلع أمي أو لأجعلها تدّعي هلعها من فقداني، حيث تروح تمثل بأنها تبحث خائفة عني في أرجاء البيت متناسية حتى اللحظة الأخيرة أن تنظر تحت الطاولة. ثم تجدني.

زهقت من البيت ومن لعبهما الأرعن فيه. كنت أخرج كثيراً، وأتركهما تفعلان ما تريدان بعد أن أيقنت بأنه لم يعد بيتي. لكن النساء يعرفن أن الحروب التي تُخلي منهن الشوارع، تمكنهن وتزيد من سيطرتهن على البيوت. البيوت التي لا كهرباء فيها ولا مياه، وتلك التي فقدت جزءاً من هيكلها تصير مسرحاً أكثر طواعية لسلطتهن، إذ تسهل فيها

إعادة التنظيم ويأخذ كل تغيير مشروعيته على أرض صلبة. وحين يصير البيت مكان الإحتماء الوحيد، تترك النساء الرجال يخرجون على كيفهم، رابضات على يقينهن من العودة ومن الحاجة البدائية للإحتماء. يصبحن أكثر تساهلاً في مدّ الحبل إلى الشارع. وفي الحراسة.

لكن، ترى لماذا كان، حين يتعاظم نفوري من تلك المرأة نهاراً كان يشتد غرامي بها وتعلقي بجسمها في الليل، تعلقاً أنجح في إخفائه تماماً حين لا أكون إلى جانبها في الفراش. لكن لماذا كنت مصرّاً على ذلك الإخفاء متعصّباً له؟

أنما كل ذلك بقي في حدوده المعقولة. أكثر مدعاة للحيرة منه ألى أي شيء آخر. كل ذلك كان قبل أن تتركني في المرة الأولى وأتبعها لأردّها بالقوة عن الحاجز على معبر المتحف. ذلك أني عرفت أني لن أستطيع المكوث طويلاً تحت الأشعة البيضاء التي وضعني هروبها تحتها... تلك الأشعة البيضاء التي صارت النقطة القصوى من عذابي هنا في المستشفى. فهمت ربما من مقارنتي لهاتين اللحظتين في حياتي لماذا يعذبني الضوء إلى هذه الدرجة. لأنهم هكذا يفعلون بمن يملك سراً يريده آخرون. تحت الأشعة يضعون المساجين الذين يملكون أسراراً. يعذّبونهم ليخرج السر فلا يخرج. حتى يسلطوا عليهم ذلك الضوء الذي يعقّم داخلهم ويفرغه. ليحنطوهم. لتتوقف تحت الأشعة الحارقة كلّ أنزيمات الخلايا. تلك التي لما قبل ولما بعد. تلك التي لحياة الخارج وتلك التي لحياة الداخل. الأشعة التي تسحب الحرارة وتجمّد، تجلّد الأغراض بلون الجليد الأبيض المشعّ. لكي تسبح في فراغ الضوء وتعقيمه، وتستقيم فيه. الضوء لكي لا يكون هناك شيء في الخارج، لا شيء في الداخل. ولكي يتوقف المجانين عن

التلوّي والإنقباض والتقلّص، ويستووا في أفق الغرفة وهوائها الراكد. ولكي يقلب السجانون أصحاب الأسرار عن إنطوائهم عليها، كما تقلب كفاً من الجلد، بأصابعه الخمس، إلى الخارج.

ليلة هروبها لم أنم. قعدت تحت الأشعة طيلة الليل. وفي الصباح استبقت موعد فتح المعبر في السادسة صباحاً. في الخامسة كنت أتربّص لها على حافة الطريق الوحيد قبل الحاجز العسكري بمئة متر. لا يمكن أن تمرّ ولا أراها. لن تكون داخل سيارة خاصة، وستنزل من سيارة الأجرة لتسير على قدميها قبل الحاجز وبعده، في المنطقة المفرّغة للتفتيش.

رحت أنتظر، وأساعد نفسي في هدوئها. أقول سأبقى هادئاً إذ حالما تراني تتقدم نحوي. تتأبط ذراعي ونعود.

كل العابرين تقريباً كانوا من المشاة. السيارات فقط كانت لأصحاب التصاريح والمهمّات، وللشخصيات. سيارات قليلة وغالية الثمن ومسرعة.

وسيارات الأجرة تعود، عبر مفارق بعيدة. ينزل منها الناس ليمشوا رافعين أكياسهم الكثيرة، وصناديقهم الكرتونية. يسيرون بتؤدة، ولا يلتفتون إلى الخلف، ثم يتجهون إلى نقاط التدقيق بالهويات والأوراق الشخصية حيث يجتمعون منتظرين أدوارهم بلا قلق. يصفون أكياسهم، وصناديقهم، ويُخرجون أوراقهم دون تعّجل أو تأفف. يبتسمون للعساكر والمدنيين الذين لا يدقّقون كثيراً... ثم يرفعون أكياسهم وصناديقهم الكثيرة ويسيرون. في الإتجاهين المتعاكسين. يُنزلون أكياسهم وصناديقهم مرة قبل الحاجز، ومرة بعده، ثم يرفعونها ويسيرون بالهدوء نفسه، إلاّ أن وجوههم، بعد العبور إلى المنطقة الأخرى تتخذ سحنة من

إستفاق على عجل لينصرف إلى أمر شاق أو لمهمة يصعب تنفيذها، كأنْ لا بدّ من ذلك. ثم تتوزع سيارات الأجرة ركّابها حسب المناطق الداخلية بدقة وتنظيم يشبهان سير الأشياء بقوة دفعها الطبيعي، وتبعاً لقانون يتكرر منذ أزمان بعيدة بحكمة ورتابة لا يمكن أن تُداخلهما أيّ فوضى أو خلل. فالساحة المفرّغة للعابرين تحت الشمس الساطعة واضحة الوظيفة، لا تشوبها شائبة الأشجار أو الظلال أو مظلّات الأبنية، ولكي يعمد أحد ما إلى شل حركة العبور وإنتظامها، لم تعد تكفيه خطط القناص الفرديّة التي تخترق هذا القانون إختراقاً إذ سُدّت على القناصة المغامرين كلّ سبل التعكير، وصار الأمر يحتاج إلى وابل من القذائف والصواريخ أي إلى قرار عسكري يتخذه جيش منظّم، تبعاً لقواعد يتمّ تدارسُها على خرائط كبيرة تفرش على طاولة يجتمع حولها القوّاد. لم يعد قانون الساحة المفرّغة للعابرين تحت الضوء الساطع، يحتمل رعونة الصدفة أو دلع الفوضى، تلك التي تحكم ساحات القرى والأرياف.

|٢|

كانت الساحةُ الفضاءَ الذي يلتقي فيه رنين أجراس النحاس الضخمة لقبب الكنائس الثلاث الكبرى بشفعائها الشديدي القدرة، الكثيري الحنان. أسيادنا وأباؤنا. حافظوا دماءنا من دنس الخلط وأبخرة الأمزجة ومن العار والإنفكاك. كان الرنين المعدني محفوظ الصفاء خالصاً، لأن هواء المرتفعات الذي كان يحمله ويرقق دوائره هواء ناشف، لا تشوبه رطوبة تعكّر ذبذبة طنينه، أو تُثقل من مغنطة ذرّاته.

الليلُ الذي يهبط ثقيلاً في شتاء القرى المرتفعة، السوادُ الذي يهبط باكراً في أشعة الشمس الضامرة الصفراء، كان لا يُظهر من الثلج الكثيف إلا بياضه النظيف، مُخفياً تماماً ذلك الذي ينزّ ماءً عكراً بعد أن هرسته عجلات السيّارات وجزمات الأولاد والرجال، وذلك الذي لوّثته السوق بالوحول وبقايا الخضار والقشور وبراميل الزبالة المترعة،

وأيضاً بدماء المواشي وبقايا روثهم أمام دكاكين الجزّارين.

المصابيح العمومية كانت مطفأة كالعادة. اقتربتْ مني أسماء، وأدنتْ شمعتها حيث كنت أقف خلف النافذة، فلم أعد أرى من الخارج شيئاً إذ جعل ضوء الشمعة زجاج النافذة كالمرآة يعكس داخل الغرفة. رأيتها منعكسةً على الزجاج، منحنية على قدميها تنزع الوبر عن جوربها الصوفي. أخذتُ الشمعة من يد أسماء، وأطفأتها ورحت أتابع النظر الى الساحة.

لم أتبينّ أحداً من جمهرة الرجال الواقفين في البرد. عرفت أنهم يتكلّمون حين رأيت كتل البخار تتدافع من أفواههم. وقبل أن أعود إلى كنبتي قرب موقد الفحم تلاشى رنين الأجراس، ولم يتبق سوى واحد واضح ورتيب. فقالت أسماء إنه جرس السيدة، وأن الصلاة ستكون مساء اليوم في كنيستها.

الأصوات الخافتة الخفيضة البعيدة كانت تقترب بتؤدة حتى بتنا نسمع الصلوات، ونتميّز الكلام واضحاً في ترداد: إضرعي إلينا. لم أعد إلى النافذة مثل أسماء، إذ كان باستطاعتي، من كنبتي، أن أراهنّ.

النساء والأولاد معهن. كن يسرن في سواد المساء الذي ما زال رقيقاً عند السادسة فتبدو أثوابهن أشد إسوداداً عند حوافي الأزقة، حيث الثلج ما زال شديد البياض. كن يسرن حاسرات الرؤوس، خلف صورة العذراء، وفي أيديهن شموع مضاءة تجعل نصفهن الأعلى كأنْ مفصولاً عن أقدامهن الحافية التي تخوض في عتمة البلل القارص. عند مرورهن بصلواتهن الخاشعة، كانت تنفتح الأبواب وعلى العتبات الواطئة ترسم نساء إشارة الصليب، وتلتحق أخريات أقل خشوعاً

ومنتعلات أحذية جلدية ضخمة. وقبل أن يدلفن في المنعطفات، وتعرّج الأزقة الموصلة إلى الساحة كانت ترتد وجوه الرجال مثقلة إلى الداخل، فيما يبقى أولاد على العتبة ناسين صحون الحساء تبترد في الداخل.

تتابع النساء تراتيلهن، فيما يستمر إنزلاق الليل على شموعهن، ويطلع هواء بارد يحمين منه شعلة الشموع بباطن اليد. وربما إرتفعت أصواتهن قليلاً وهن يقتربن من الكنيسة إذ يطغى إذ ذاك صوت الجرس الكبير. عند الساحة التي تتلقف قبّة السيدة الغائبة الآن في ليلك السماء تكبر جمهرة النساء والأولاد إذ هناك تلتقي مسيرات الصلاة القادمة من الإتجاهات الأخرى.

يتملّك الرجال ما يشبه الخوف فيخلون لهن المكان كلّه، ويلتصقون بالجدران. آخرون يهرعون إلى الجرس الكبير يقرعونه بكل ما أوتوا من قوة، فيما تركع النساء وتعلو الصلوات. وحدها حنّة تفتح ذراعيها واقفة وتكلّم العذراء بنفسها ومن دون تراتيل وصلوات. تطلب منها أن تحمي قريتنا، وتمحق عدونا. تطلب باسمنا جيمعاً، لأن حنة هي بابنا إلى السماء، إلى حيث عرش شفيعتنا عند إبنها تطلب كاشفة عن صدرها أن تمطر كبريتاً وناراً على من يتهدد أبناءها وعبيدها. فتطلع الأيدي إلى الرؤوس غير الحاسرة بعد وتُلقي الأغطية بحركات سريعة إلى الظهر أو الأرض ثم تنزل إلى الصدور فتفتحها على عريها لكي تكون القلوب حاضرةً مكشوفةً تقرع عليها النساء بقبضات ثقيلة قوية، فتضرب كطبول صغيرة بإيقاع الإنسحاق والورع الملّح خلف جمل القديسة حنة، الآخذة بالتسارع والتفكّك. بعد ذلك يخرج الكاهن، ويدعوهن للدخول وبعد أن تعيد حنة الغطاء إلى

رأسها، تتقدمهن إلى الداخل.

ذلك أن حنّة هي التي بعد أن فقدت أخويها راحت ترقص وتزغرد رافضة دفنهما قبل أن يحمل لها الشباب جثتي قتيلين من الأعداء لتشهدا الصلاة والدفن قرب فوهة القبر. حنّة، هي التي خرجت تصرخ ليلاً أمام بيتها ويداها تنضحان بالزيت.

السطوح الصغيرة إمتلأت بالرجال الذين راحوا يطلقون بنادقهم، تلك القديمة التي تفقع دخانها في الهواء، وتلك الحديثة الرشّاشة التي كانت لعلعتها الطويلة تقطع صوت الأجراس التي راح رنينها ينهمر حاراً حارقاً وسريعاً كاشتعال الكبريت.

جميعهم ركضوا باتجاه بيت حنة وهم يولولون فرحاً. كان فرحاً لكنه أنزل في سحناتهم هيئة الهلع أو الألم الذي لا يحتمل. ركضوا بإتجاه بيت حنة وأكثرهم لم يعرف الخبر وكأنما لا حاجة بهم لذلك. خمّنوا أنه أمر عظيم حلّ لتوه على كوكبهم فركضوا بإتجاهه. كانت القناديل الغازية الصغيرة تخرج من الأبواب التي يتركونها مفتوحة، ثم تتجمع دون أن تتوقف لتنزل بعد أن يتكثّف الضوء في المنحدر القاسي والضيّق الذي سيفضي إلى مصطبة البيت. دون أن يلجوا الباب الصغير، كانوا يرون التمثال الأزرق والأبيض يطلق زيته.

بعض المصابيح راحت تعود متسلقة المنحدر لتتفرّق سريعاً في كل إتجاه إذ ينبغي الآن العودة بالقطن الذي سيشرب الزيت ويمّرر على أوجاعنا فنبرأ.

ظلت العذراء ترشح زيتاً لأيام طويلة مكّنت الجميع من الزيارة. أتت أقوام من أمكنة بعيدة، وحملت قطنها الناشف

لتعود به مروياً ملفوفاً بالعناية التي تلزم وبالأوراق المشمّعة التي تحفظ من التبدد والرشحان والجفاف. حتى الكهنة المجهولون الآتون من أمكنة بعيدة أقاموا قداديسهم تحت عدسات الكاميرات القوية الضوء في بيت حنة التي لم يعد أحد يراها حتى فيه، إلا في ما ندر. قالت نساء من جاراتنا أنها سافرت إلى روما، بعد أن طلب البابا رؤيتها وقالت أخريات أنها لكثرة ركوعها وصلاتها نسيت أن تأكل، فضعفت جداً ومرضت فحملوها إلى المستشفى. وقالت أخريات أنها باتت غير بائنة حتى وهي موجودة بيننا لأن العذراء تخطفها إليها لتكلّمها على حدة ثم تردّها، لا نعرف متى وكيف. حتى عمرها لم يعد بائناً في جسمها ونسيت النساء حتى من صاحبات أمها أو جاراتها القريبات متى ولدت حنة، وتردد أنها في العشرين أو في الأربعين أو الخمسين.

ما عادت حنة تكلم أحداً من أهل القرية، إذ لم تُسمع عن لسانها جملة واحدة مفيدة. وكان صمتها يزيد من إحتمال تعرّضنا لخطر عظيم حسب ما كان يقول الرجال بكلامهم القليل والذي كان يفضي دائماً إلى وجوب التحسّب ومضاعفة الإستعداد لتقديم التضحيات، بعد أن تبيّن لهم أنهم بعيدون جداً في مرتفعاتهم عن نسيج المدن وأحوال العاصمة وفتات كلامها. وأن حظائر مواشيهم في الحقالي المتاخمة هي التي تشكّل حدودهم الآمنة القصوى. كانت حركة الرجال القليلين من بيوتهم إلى الساحة ومنها إلى فتحات الأزقة الضيقة، لا تبدو على توتّر إلا حين يمر بهم الشباب المقاتلون على عجل ودون تحسب أو توقّع.

بعد أشهر قليلة خرجت حنة مرة ثانية تصرخ في الليل. لم يصعد الرجال إلى السطوح لإطلاق بنادقهم. النساء لم

يزغردن. وضعن أيديهن على رؤوسهن، وركضن ناسيات أولادهن في البيوت أو على عتباتها. تحلّقوا على بعد أمتار من حنة الصارخة في الليل كأنهم يخافون الإقتراب. قرّب حاملو المصابيح الغازية مصابيحهم ليروا يدي حنة التي كانت تصرخ، رافعةً كفّيها في وجوههم.

قالت لهم ان العذراء لم تعد ترشح زيتاً صافياً بل زيتاً عكراً لأنه الآن غدا ممزوجاً بالدم. الدم الدم. العذراء ترشح دماً لأن الآتي عظيم.

قالت لهم ان المصابيح الغازية لا تنير. ولا الشمع الأبيض. أن السواد الآتي لن يشقّه سوى الشمع العسلي الأصفر. وأننا العبيد لن نرى عندما يحلّ علينا اليوم الأسود، لن نرى أصبع يدنا إن لم نضيء شمعاً عسلياً. غمامة سوداء عظيمة سوف تنزل علينا من السماء فتنكسف الشمس وتغيب نجوم الفلك ويحلّ ليل الرب.

ليل الرب. فالعذراء ترشح مع الزيت دماً أحمر قانياً.

يا الله قال الناس... علينا بالشمع العسلي. ودخلنا في زمن البحث عن الشمع العسلي حتى نفد من آخر القرى البعيدة مع أن الناس تستّروا على السرّ ضناً وتحسباً. ثم إكتفوا بشمعة أو إثنتين لعائلات عدة تسكن في بيوت متقاربة لأن أيام القصاص هذه لن تدوم طويلاً.

قعد الناس ينتظرون بعد أن هيّأوا شموعهم. راحوا يتحدثون بأنها تؤلّف ولا تؤلّفان حسب النبوءة التي لم يتوصّلوا الى تبيّن مصدرها الأكيد. الخوري أيضاً قال لهم ليتعظوا، لأن القرية في خطر عظيم. نصحهم بالصلاة والتحسّب. صلّوا وهيأوا شموعهم، وراحوا ينتظرون هلعين. ثم راحوا يحاولون فهم ذنوبهم فوجدوا أنهم أهملوا

الصلاة، وانصرفوا أكثر مما ينبغي إلى أمور الدنيا، حتى تغلب عليهم أعداؤهم واستقووا. لكننا أبناء العذراء وهي سترحمنا. سترحم أكثرنا، وإلّا لما ظهرت عندنا ورشحت زيتاً ودماً. ثم قال بعضهم إن الغمامة السوداء ليست سوى هؤلاء الصوماليين أو الزنوج الآتين من طرف العالم الآخر ليقتلونا نحن أبناء العذراء مريم. بكت النساء الصغيرات، فانتهرتهن الكبيرات قائلات إنّ هذا لا ينفع.

لم تكن أسلحة كثيرة في القرية. وكانت في أكثرها أسلحة قديمة وبدائية بعد أن أخذ الشباب إلى الجبهات ما كان صالحاً منها. لكن الرجال نظفّوها بتأنٍ، ووضعوها على مقربة دون كلام كثير عن جمال الأسلحة والمباهاة بها كما كان يحدث قبل ظهور العذراء. كان الكلام في البيوت قليلاً، والزوار القليلون يلبثون صامتين.

نحن لم يكن أحد يزورنا. عرفنا أنا وأسماء أن ذلك بسبب المرأة التي معي، وعرفنا أنا وأسماء بأني شاب أمكث في البيت ولا أخرج منه خروج الشباب من قومي.

لا أذكر أنها تكلمت طوال تلك الفترة التي مكثنا فيها في القرية، تلك المرأة التي كانت معي. التي هربت معنا حين فرغت العاصمة من الناس بعد ليالي القصف الطويلة.

أذكر أنها كانت تمكث في مكان واحد لا تقوم منه إلا قليلاً. وأنها لم تكن تنظر في عيوننا حين كنا نكلّمها أنا وأسماء كلامنا القليل. وحين تخرج أسماء من البيت كانت تتجنب البقاء معي في غرفة واحدة. وحين تعود أسماء من الخارج، لا تكون أبداً في غرفة الجلوس. تتركنا لكي تروي لي أسماء الأخبار على هواها ودون حرج. نلتفت، فلا نراها، وبتنا لا نسأل عنها ولا ندعوها للبقاء معنا أو لسماع الأخبار التي كنا

نسخر منها في بداية إستقرارنا في القرية. كذلك لم تعد أسماء أبداً تصر على دعوتها للخروج والتنزه معها على الطريق حين يكون الطقس جميلاً. ومرة همست لي أسماء بأنها لا تريد لها أن تتعرّض لكلمة ثقيلة. وفهمتُ بأن أسماء إنما تحرص عليّ مخافة أن يتهم أحد المرأة التي معها بأنها جاسوسة. ومرة... أذكر أني شككت في أن أسماء تحاول إستدراجها إلى كلام فيه شيء من الإستفزاز لكي تبدو هذه المرأة التي معنا بعيدة عن قومها.

كان يتهيأ لي أحياناً أنها خائفة. وأحياناً بأنها ربما تبكي حين تكون منزوية نهاراً في غرفة النوم، أو حتى في الحمّام وهي تغسل ثيابها. لكني ما وجدتها محمرّة العينين ولو لمرة أو حتى نديّة الأهداب. كنت أحتار في ما تراها تفكر في صمتها الطويل، وفي تجنّبها إياي. أفكّر أنها ربما نادمة على مجيئها معنا إلى هذا المكان البعيد الذي لا يشبه أي مكان لديها. أو أنها ربما كفّت منذ زمن عن حبي، وأنها إنما تنتظر الوقت الملائم لتتركني وتعود.

تكون باردة في الليل حين أقترب منها. باردة أكثر مما يبرّر برد الشتاء في القرية. وربما لأنها تعرف أني أقترب منها غير مدفوع برغبتي في جسمها. تعرف أكثر مني حين لا أكون راغباً في جسمها. كان ذلك كأنه يواتيها تماماً إذ لم تكن تحاول حتى إشعاري بأنها مستمتعة بإقترابي منها. فقط تتركني أحرك جسمها وتنصاع. أقرّبها مني فتقترب. أضع رأسها بين ذراعي وكتفي وآخذ أصابعها المثلجة إلى شفتي لأدفئها. أرفع وجهها إلى وجهي، فتغمض عينيها ابتسم لها، فلا تراني أبتسم. تعتقد أني أحاول طمأنتها، لا حبّها. ولا أجد في جسمي رغبة مضاجعتها لأصحح ما تعتقد. تبقى باردة وقتاً

طويلًا، ولا أفهم لماذا لا أجد في جسمي رغبة. ربما أشفق عليها من تعريتها في بردها حين أعرف أن جسمي لن يحمل لها الحرارة، وربما لأنها حين تكون هكذا أجدها أقرب إلى الطفلة التي لها ثديان كبيران. يحزنني أن تبقى بادرة هكذا، ويحزنني أن أعرف أني لست أباها الذي يدفئها في حضنه، ولا زوجها الذي يضاجعها، وأحتار في من أكون هكذا قربها والليل على هذه الدرجة من الفراغ خارجاً، والثلج على هذه الدرجة من البياض والاستكانة.

|٣|

قالت أسماء أنها تريد البقاء وبقيت.

ودّعتْ أسماء وكأنها لن تراها ثانية ولو دون كلام كثير. حملت حوائجها القليلة ووقفت قربي.

حين قلت لها بأننا سنعود إلى العاصمة لم تمانع بحجّة الخوف عليّ من القصف الذي كان ما زال مستمراً ولو أن حدّته قد خفّت. لم تتلكّأ، ولكنها لم تبدِ أي فرح أو حماسة أو نفاد صبر. وكأنها كانت في محطّة ما، تتسلّى بقضاء الوقت المتوجّب، وها القطار يصل في موعده بالضبط وكأنها كانت تتوقّع حصول أمر عادي ومتوقّع، وها هو يحصل.

لم يكن الذنب ذنبها. لم تكن مسؤولة في شيء، رحت أردد لنفسي في السيارة. أنا الذي أخترت العودة إلى العاصمة، وها نحن نعود سوية.

لكنها لم تكن تنظر من زجاج السيارة إلى المكان الذي كانت

تغادره، والذي مكثتُ فيه وقتاً غير قصير. لم تكن تلتفت إلى تلك البقعة من البيوت، الآخذة بالتضاؤل والإنكماش والتقلّص كأنْ بفعل الثلج الذي يكسوها. وكأنها لم تقم هناك، ولا حتى عبرت عبوراً.

هل كانت القرية المبتعدة عن عينيّ من خلال الزجاج المكسوّ بغبش الأنفاس، تبعث فيَّ الحزن أو الحنق أو الإحساس من فخ مكثت فيه أكثر مما ينبغي؟. لم أعد أعرف. كنت أعرف فقط بأنها إبتعدت، تلك القرية، وتضاءلت كثيراً. كنت أعرف أنه لولا المرأة التي بجانبي، كنت بقيت هناك، أو أني كنت غادرت منذ زمن. أعرف فقط أني ما كنت أبداً سأختار ذلك الصباح البارد بالذات. ما كنت سأختار ذلك الصباح لأنه، هكذا، لم أكن أدري لماذا لم يكن يلائمني.

لكن هي كذلك لم تختر ذلك الصباح. لم تُملِ عليّ شيئاً. قلت لها سنغادر إلى العاصمة فوضّبت حوائجها القليلة ووقفت بقربي.

بعد مضي أيام فكّرت بأنها إمرأة بلا مكان، ولن تطيق مكاناً لي. تساءلتُ كيف كنت لأرى ما يصير حولي لو لم أكن أنظره بعينيها هي أيضاً. لو لم أكن أخاف عليها منه قليلاً. وتساءلت ما إذا كنت، لولاها، كففت عن التشابه مع أهلي، ومع أولاد أعمامي، وأفترقت عنهم. وعمّا إذا كنت غادرت القرية فيما أهلها ما يزالون، بالاتجاه المعاكس، يطلعون إليها بما تبقّى لهم من متاع قليل.

كنت مقتنعاً تماماً بأن مكان المرأة هو مكان رجلها. إن مكان المرأة هو رجلها. لكني لم أكن رجلها، والدليل أنها تركتني في ما بعد. بعد أن تركتني أيقنت أني كنت تافهاً في بطولاتي ومشاعري النبيلة العادلة التي تشمئز من التعصّب

والعنف. . . أني كنت مجرد حمار، أهبل، لأن ما حصل هو أنها، قبل أن تتركني سلبتني مكاني الأخير، وسلبتني أهلي. تماماً ونهائياً بما أني غادرت مثقلاً بعدالتي. كانت تعلم أنها جعلتني كالدودة العريانة دون أهل في وسط معمعة أقل ما يقال فيها أنها أهلية. تركت دودة إذا قُتلت في الشارع برصاصة طائشة لا أحد يذهب إلى براد المستشفى للتعرّف، إليها، أو لحملها إلى حيث قُبر أهل تلك الدودة منذ مئات السنين. أخذت مني تلك المرأة قبري.

منذ ذلك الصباح عرفت أن شيئاً طقّ في داخلي. أن هورمونات مذكّرة معينة قد إنطفأت فيَّ. وإلّا، لماذا كنت شديد الهدوء إلى هذه الدرجة على الحاجز عند مدخل العاصمة. لماذا، والمسلّح يبهدلني لم أشعر بالمرارة ووجع المعدة الذي يعتريني كلما اضطررت للسكوت والإذعان لقلّة حيلتي. قال لي المسلّح: لماذا رجل في مثل طولك وعرضك لا يشتغل. لا تشتغل ولا تحمل السلاح. كيف إذن تطعم إمرأتك. . . كيف تنام معها؟ أم تراها هي التي تطعمك وتـ. . . معك أيها اللوح. هل هي إمرأتك؟ أين أوراقها؟ إنزلا من السيارة.

كانت تمطر مطراً خفيفاً، ولم يسمح لنا بالإحتماء تحت السقف التنكي الكبير حيث يفتّشون الأمتعة. بقينا ساعات طويلة، ربما لأن الشاب نسينا. إذ بمجرد أن التفت ورآنا، أشار بحنق أنْ اطلعا بالسيارة وأغربا عن وجهي.

كنا نقطر ماءً حتى عام قماش المقاعد، وبقي يرشح ماءً لأيام كثيرة. إنقهرت فقط لأن المقاعد بقيت مبلولة رطبة لوقت طويل، وطلعتْ في السيارة رائحة عطن وعفن قوية. لم أفكر حينها بأني، لو بقيت في قريتي، وراء عزوة أهلي لما

يهدلني أحد. لم أفكّر أني، لو كنت مع أقربائي في السيارة لما أهانني مخلوق. على الأقل كنت أنقهرت كرجل لا يستطيع سوى ذلك، وكنت عانيت من أوجاع معدتي لأيام بسبب سكوتي على الضيم. على الأقل.

عرّتني لأكون لوحدي قبالتها. لأغدو ربما شبيهاً بالنساء. بالنساء الأخريات، إذ حتى نساء قريتي لا يخرجن كالدودة من أمكنتهن، من رجالهن. الأخريات اللواتي يشبهنها، اللواتي يفزعن ويكن وحيدات.

ثم تركتني.

مرتين.

قالت أسماء أنها ستعود في المرة الثانية، لكن ما كان ينبغي عليّ أن أعيدها بالقوة عن معبر المتحف حين تركتني في المرة الأولى. حسب قول أسماء.

كنت أمشي على الرصيف، أحدّق في المارّة العابرين وأعرف أنها ستجيء ذلك الصباح لتعبر الى المنطقة الأخرى، في الساعات المسموح العبور خلالها. كنت أعتقد أنها بمجرد أن تلمحني بإنتظارها، ستتجه نحوي تنظر في عيني أسفي على كل ما تريدني أن آسف عليه، كل ما أعرفه وما لا أعرفه مما يستدعي أو لا يستدعي أسفي.

لكنها لم تفعل. حين لمحتني على جانب الطريق، أسرعت سيرها بإتجاه الحاجز. إستغربتُ كثيراً. ناديتها، بإسمها، واتجهت صوبها فركضتُ. راحت تركض دون أن تلتفت إلي. إنتبه لها كل الناس العساكر والمدنيين والمشاة إذ لا تسمح حركة العبور الهادئة المنتظمة بأي إشارة يمكن أن تكسر إيقاعها أو تبلبل الأمن المحسوب كدقات القلب. وجدت نفسي أركض أنا أيضاً إليها. كأني أريد أن أمنعها من الركض

أو أن أمنع عنها رصاصة توقف حركتها المجنونة. راحوا ينظرون إلي أيضاً. وقبل عساكر الحاجز بأمتار وجدتها ما زالت تركض إليهم. هرباً مني. فهمت أنها تهرب مني. وسمعت خرطشة السلاح بإتجاهها وبإتجاهي. قلت للعسكري أوقفها فهذه المرأة تريد الهروب. توقفتْ على الحاجز مباشرة، وكنتُ ما أزال بعيداً عنه بضعة أمتار. توقف الجميع وراحوا ينظرون إلينا. قالت للعسكري أريد أن أمر فبيتي هناك، وهذا الرجل قد خطفني. كأني لم أسمع، لم أفهم. وصلتُ إلى العسكري وسألتُه ماذا تقول هذه الـ المرأة؟ قال العسكري أعطني أوراقك. أعطيته أوراق هويتي وقلت له هذه زوجتي، تريد أن تهرب إلى عشيقها. قالت له، هذا الرجل خطفني، وأريد أن أعود إلى أهلي. أعطيك إسماءهم فاتصل بهم. أخذنا العسكري إلى خيمة قريبة في ميدان سباق الخيل. طلب منها أوراقها. لا تحمل أوراقاً لأنها تنوي الهرب، قلت له. ثم طلبت أن أكلّمه على إنفراد. إنتحينا بعيداً عنها. رجوته أن يفهم وضعي، ويجنّبني فضيحة إضافية فهي زوجتي وتود الهرب إلى حيث عشيقها في المنطقة الأخرى، قلت له ماذا عساني أفعل بإمرأة، ولماذا أخطفها. قلت له بأني كنت أستاذاً في مدرسة شهيرة إنهارت بفعل القصف. قلت بأني لست مسلحاً، ولا أخطف النساء. سميت له بعض أقربائي البعيدين من الزعماء. قلت له إن أراد أصف له علامات مّميزة في جسمها. قلت له تعرف ما يصيب النساء أحياناً، وكيف يتصرفن لينكّدن علينا عيشنا.

قال خذ إمرأتك وامش إلى بيتك كان الله في عونك. رحت إليها. لففت شعرها على معصمي جيداً، وقلت هيا الآن إلى البيت. نظرت بهلع إلى العسكري. لم تتخابط معي. تبعتني

بإذعان، أدهشني، لكني لم أترك شعرها. دفعتها داخل السيارة وخبطت الباب. إنتظرت قبل أن أطلع إلى مقعدي لأرى إذا ما كانت ستحاول فتح الباب ناحيتها والهرب ثانية فلم تفعل. كانت الكهرباء مقطوعة والمصعد متوقف. راحت تتسلق السلالم من نفسها. وكأن شيئاً لم يكن. فتحتُ الباب، فدخلتْ لاهثة. جلستْ على المقعد، فلبثتُ واقفاً أنظر إليها. ظلت جالسة دون حراك تنظر في الحائط قبالتها. دون حراك. في الحائط قبالتها. وأنا واقف أنظر إليها.

بلحظة شعرت بعياء عظيم. ركبتاي بالكاد كانتا تحملانني. ربما لأنها كانت شاحبة جداً، وربما لأني لتويّ صدقت أنها لم تنجح بالهرب وأنها قبالتي، وأنها امرأة قليلة الجمال إلى حد بعيد. وأني ضربتها.

يا إلهي. إنها أقوى مّما أتصور بكثير. أقوى بكثير من قدرة أي كان على الإحتمال وهي توصلني إلى أماكن من ضعف وهشاشة لن يكون باستطاعتي الإذعان لها أو القعود فيها.

يا مسكين. يا مسكين يا أنا، رحت أردد في نفسي والدموع تنهمر من عيني. يا مسكين. يا أنا.

|٤|

إنها القناة التلفزيونية التي تبثّ من منطقتها. أدير التلفزيون على القناة التي تبث من المنطقة الأخرى لأفهمها أن لا مانع عندي أبداً من أن نشاهدها سوية. ولأفهمها بأني لم أختر السكنى في هذه المنطقة بملء إرادتي، وإذن هذا هو مكاننا نحن الاثنين في الوقت الحاضر. ولأفهمها بأنها لن تقيم هناك، لأني هنا، ولأن هناك وهنا حال واحد. جهنم واحدة. وبأنها إذا خطر لها أن لكل جهنمه التي يفضّل أن يُسلق فيها، فإن لها شاشة التلفزيون، وقناة المنطقة الأخرى تتفرّج عليها كيفما ومتى تشاء... ونتفرج عليها معها.

نتنقل بين القنوات المتكاثرة كالبهلوانات، كالفراشات بين رحيق الكراهية المتنوع الطعم. السكري العسلي المصفّى بأي حال. فيتاميناتنا اليومية التي تقوّي فينا نسغ الحياة، وتدفعنا إلى نهار جديد. إلى نوم عميق هنيء كذلك الذي كنا نركن إليه

في حضن آبائنا، ثم إلى صباح مبارك جديد تطل علينا فيه شمس الرب بضوئها ودفئها. شمس الرب التي ضوؤها ودفؤها ما عادا يستطيعان اللحاق بنور إيماننا. إيماننا المشتعل كالهكسوجين.

يقطع كل البرامج ليظهر علينا. حين يملي علينا رسالته يكون قد غادرنا. ينظر إلى صورته على شريط الفيديو معنا. روحه الطاهرة لقديسة تشاهد معنا جسده. نكاد نفسح لروحه على الكنبة بيننا ونحن نستمع إليه يقول لنا على التلفزيون: أنا الشهيد... نكاد نتلفت حولنا وهو يملي رسالته التي كتبها بنفسه والتي يقول فيها أننا في الوقت الذي ننظر فيه إليه ونسمعه يكون هو قد استشهد. في الوقت الذي نراه فيه الأولى في حياتنا. تكون حياته هو قد ذهبت. حتى صرنا نعرف من طلّته الأولى علينا، في التسجيل السيئ والصورة المختلّة الألوان، بأنه هو، أحد قديسي الفيديو. الذين لا يرتجفون إلا على شاشاتنا. أمام كاميراتهم الصغيرة بتقنياتها البدائية التي لا تقيم للشكل وزناً. كيف يكون للشكل أي وزن والروح هي التي تتكلم الآن إليك دون جسدها. هؤلاء فراخ القداسة الصغار الذين تفقّسهم مكنات الأوطان الصغيرة التي لا حيلة لها سوى انفجار الشكل. هؤلاء الذين أنسوهم أمهاتهم واستبدلوا أجسادهم الفتيّة بلغط الأنتينات.

وهو يستبدلنا. يبتسم كأنْ لموجات الميغاهيرتز. كأننا شاشاتنا وذبذباتها الهوائية المغنطة. كأننا زجاجها المسطّح، يتحدث إلينا ثم الى أهله قبل أن يشكر الحزب أو التنظيم الذي دلّه على الطريق، الطريق الذي يروح يبدو لنا شبيهاً بتلك الديكورات الكرتونية حيث تبدأ الطريق من خشبة المسرح، ثم تصعد في خلفيته وتضيف حتى تغيب في السماء بين الغيوم

القطنية الزرقاء، فيما الراقصون والمغنّون يصعّدون أمواج الخطوة والصوت الى علياء السوبرانو.

كأنه جدّنا الذي في ليالينا القارسة المظلمة، يعلّمنا الحياة. يقول لنا عطبها وسرارتها السامّة اللذين لا ردّ لهما. لقضائهما. لكي، بعد وجهه مبتسماً، لا نخطئ درب المعرفة. الدرس النهائي الذي لا يقبل مراجعة أو تصحيحاً أو تعديلاً، ولا يفيد من الوقت وحكمته إلا رسوخاً على رسوخ ويقيناً على يقين.

كأنها دروس ردّدها طويلاً حتى انسابت سهلة. لا يتلعثم مرة أو يتردد أو يقف متنكراً. لا يتوقف لحظة عن الابتسام ليركز أو يستجمع أفكاره أو يستدرك ذاكرته. أو ليصل الجملة بالجملة لا يتوقف عن الإبتسام وكأن ما يقول ليس من الجدية في شيء.

هل عملوا مونتاج ما للكاسيت التي أرسلوها الى التلفزيون، فأزالوا منها كل ما أتى على لعثمة أو تردد أو نسيان. أم تراه كتب رسالته بأحرف كبيرة وراح، عن بعد، يتلوها تلاوة.

يكون وراء مكتب حين يحدثنا، ليعطي أهميةً ونبرةً رسمية لما يقول. لكن هذا لا يتناسب مع ابتسامة، ولا مع رصف الكلمات التي تجيء مدروسة، مشذّبة، وعادية الى حد بعيد. عدا بعض الصور الأسلوبية الشديدة الإستهلاك، يقول كلام الموظفين، ذلك الذي يجعل عجلة الحياة مستمرة في دورانها البطيء العادي، لا كلام من جاؤوا للإخلال بتوازنها ولو للحظات. كأن مسرحية الموت الصغيرة التي أعدّها مصنوعة باتجاه الحياة لا عكسها. لا يقع الخلل إلا في اللحظة الأولى لظهوره علينا.

كأنه الروح التي تحدثنا لتقول أن الشهيد الذي يكلّم الشعب والأمة ليس روحاً محضة. كأي منا يحدث أهله. يعتذر من أمه لأنه لم يودعها، ولم يطلب موافقتها. يكون الولد الذي نحلم به جميعاً آباء وأمهات إذ ينفصل عن كوكبة المسلّحين أصحابه، هؤلاء الذين يوسعوننا إهانة ونهباً وقتلاً. يصير وحيدنا جميعاً، المحب لأهله. الضنا الذي يعود إلينا بعد ضلال. حَملُنا.

يقول أنه سيهرق دمه، ويكون أهرقه متبخراً، حين نراه للمرة الأولى. يكون دمه المادة الأولية للسعادة. تضيء ابتسامته السعيدة الى مسافة بعيدة في دائرة يصل شعاعها الى عدة كيلومترات، وتسمع لها ضحكة كبيرة مدوّية. الدم الذي يحقق مباشرة وفي اللحظة ذاتها تلك السعادة الشديدة الإشعاع، لا يشبه ذلك الذي يسري في أشرطة الشرايين المغلقة المعتّمة. ذلك الذي يحتقن بالخوف وبالتهاب المفاصل وبالجلطات ودورات الحيض. ذلك الذي يشبه البالونات الصغيرة النابضة تحت مجهر المختبرات، الذي يُرقّم بالتحاليل والفحوصات، رائحاً غادياً من الكبد بالأغذية ومن الرئتين بالأوكسجين.

إنه دم آخر. مفتوح وخالص. ضارب نافر مكتمل في عناصره المركبة. مادة نورانية. لا لون لها لأنها ثبوت الألوان في التاريخ وتصحيح لمسار سوائله، لمسار جغرافيته الظالمة القاسية المتعنتّة المتجبّرة.

قال لهم خذوا كلوا. هذا هو جسدي فأخذوا وأكلوا.
قال لهم خذوا واشربوا هذا هو دمي فأخذوا وشربوا.

كأن كل ما قال وصنع ليس مجازاً. عبأوا الكل في علب الفيديو. أعطوها لسوّاق ماهر. قالوا له وزّعها على مباني

التلفزيون والإذاعات، وعلى وكالات الأنباء الأجنبية، وعد قبل أن تسخن البيرة وتبرد حسرة الأعداء. وقبل أن تتصل الأحزاب الزميلة وتفاوضنا على إنتاج الكاسيتات.

الفقير. الصغير اليتيم المغشوش. نكاد نوسع له بيننا. نكاد ننظر من النوافذ، علّنا نلتقط روحه السريعة في طيرانها الى السماء. علّنا نلحظ شهباً صغيراً، نعرف أنه سينطفىء حال وقوعه في مرمى العين. نكاد نرى بيننا، على الكنبة، ابتسامته تعتذر عن مشاركتنا حساء المساء القليل.

لكنه ليس بيننا. لا قبل ولا بعد. ولا قبر يزوره من كانوا أهله. ليس له مكان الآن خارج الشريط الذي لن يمر سوى مرة واحدة. مكانه الهواء، هذا الذي كان في الصورة المرتجفة المختلّة الألوان. في المجاز وفي التجريد. مجاز بدون دلالة تتبعه وتجريد دون فكرة يحملها أو يرقى فيها.

هل عرف أن الوقت يشبهه. أن الوقت العمومي يتجه الآن مثله الى الشريط. وانه في النوستالجيا الساذجة الرومنطيقية التي تبدو آتية من ماض مضى، أكثر حداثة وعصرية من أوقاتنا نحن. كأنه يعرف من حيث لا أحد يدري أن صورتنا هي مستقبلنا. تحديداً تلك التي ستحل محلّنا. أن الدلالة القادمة هي صورة الدلالة مفرغة من نواة ارتقائها. أن شاشة الفيديو هي التي سترفع سلطة العين على سلطة الدماغ. وأن هذا الشكل المطلق الذي ستلعب عليه العين، هو الذي سيكون موجوداً لا نحن. سيكون سيدنا. صورة السانتيز والهولوغرام الصورة الإفتراضية. صورة مخترعة. الكمال مطلقاً. التجريد في أبهى حلله، لأنه متخفّف من أثقال نقصانه الأول. عالم المثل والصور المكتملة الأولى التي حدسها الفلاسفة القدماء، وماتوا توقاً، وكنا نقضي حيواتنا فقط من

أجل الحنين إليها. في نقصاننا لأننا حين ولدنا نسينا. نقضي حيواتنا الضئيلة، نسترجع صوراً عما كنا عرفناه. عن الجوهر. الآن سيكون لنا الجوهر مكتملاً. الصورة الجوهر. مكتملة عوضاً عن أصلها الناقص. الهولوغرام، الهيولي، الخفة مقطوعة عن المادة، الثقل، الدلالة. الفضاء عوضاً عن جاذبية المكان.

النوستالجي الذي يبدو آتياً من زمن مضى يدخل الفيديو كأنه يعلم أن الصورة غدت الحد الفاصل في الحروب. أن الأعداء لم يعودوا يأتون من وراء الحدود. لم يعودوا ينظّمون جحافلهم خلف الجبال والأنهار وعند الخنادق التي حفرتها رفوش الجنود الصغيرة المعلقة الى جانب مطرات المياه على الخصور، قرب صور الحبيبات والزوجات. لم يعودوا يعبرون السهول الوسيعة كراً في الأرض المغزوّة، وهم يرفعون أسلحتهم.

لم يعد المكان مقسوماً الى ما قبل وما بعد الحدود لأنه غدا صورة محضة. ففي الحروب الداخلية ينتفي المكان. يترك ثباته ليتحرك كالهولوغرام ومعه الناس الفارغون من أمكنتهم، في فضاء المعارك المضيئة.

هذه المرأة التي تتابع النظر إلى أصابع يديها، تتأكد مثلي كل مساء من فراغها. الآن وقد غدونا نحن الاثنين صورة مكانينا، صرنا نتشابه إلى حد بعيد، كأخوين أو كأختين. أنظر إلى وجهها، وأقول كم صارت تشبهني. كم صرت أشبهها. الزوجان اللذان يفرغان من العالم الخارجي، ويمضيان وقتاً طويلاً في بيتهما، قبالة بعضهما، بعد أن تداخلت سوائلهما وروائحهما لليالٍ طويلة، لا بد أن يتشابها. اللذان لم تعد بينهما حدود وفرغا من المكان، وفرغ

منهما المكان. يتشابهان أكثر مما يشبههما: ولدهما، لأن الولد يصير إلى غير أبويه، فيما هما يصيران فقط إلى ما هما عليه.

نتشابه كثيراً حين نقف أمام المرآة. وحين نكون قبالة بعضنا. نتشابه كثيراً لأن لا مكان لنا خارجاً.

حتى جسمها، لم يعد مكاناً لي.

|٥|

نتشابه كثيراً. كأن غضب الرب وانحيازه يقرّب سحناتنا بعضها من بعض، داخل المستشفى، حيث تجمّعنا بعد أن تركنا أمكنتنا، وكلٌّ من كنّا نشبههم قبل المجيء إلى هنا.

ليست الأمصال والحبوب التي كانوا يوزعونها علينا هي التي كانت ترمي ذلك الحجاب الواقي على أعيننا. وتقينا النظرة المستقيمة. حين وجوهنا مرتاحة على صدورنا إلى تحت، أو مورروبة مائلة والبؤبؤ يرتجف ويتردد، ولا يريد أن يستقر. لا يريد أن يعود إلى وضعه الأفقي الذي تعوده قبل، والذي يريد أن ينساه، وينسى شوقه إلى لقاء العيون الأفقية النظر، تلك التي رجوناها طويلاً قبل مجيئنا إلى هنا، ثم يئسنا.

دائماً ألسنتنا تثقل في أفواهنا، وتعجز شفاهنا ـ التي تعطّلت عن الكلام منذ زمن وإرتدت عنه ـ تعجز شفاهنا عن حملها وردها إلى الوراء. تثقل ألسنتنا في أفواهنا وتكبر حتى

تفيض عنها وترسل لعابها الفاتر الذي نشف طويلاً، وابتلعناه دونما جدوى.

كأن راحة رؤوسنا واسترسالها هي التي تجعلنا متشابهين إلى هذه الدرجة. كأن أماً واحدة ولدتنا، وما تزال تحنو علينا، وتربينا تحت جناحها، وتعرف أننا لن نكبر أبداً عنها، ونتركها إلى فسحة العالم الخارجية. الحليب نفسه في الأكواب البلاستيكية البرتقالية والخضراء.

لكننا لسنا في معتقلات اعتقال. إنها أمكنة تعودناها، ونعرف أن لا عوض لنا عنها. ليسوا قساة. لا تعرف مهنتهم «قسوة المهن» في الخارج. يعرفوننا ويقبلوننا ولا يحاولون إنكار تعبنا علينا. لا يحاولون تقويم أعوجاجنا. يهتمّون بنا كثيراً، ويتكلمون عنا باستمرار، وبشفقة. يقولون إننا ضحايا. إننا ضحاياهم، وإننا الأصبع التي تشير إلى جرائمهم وقسوتهم. يستعيضون عنا بنا. يستعيضون عنا بنا، وحين نسمعهم نشعر بفرح من يسمع نفسه، ينطق بلغة أجنبية لم يتعلمها قط في حياته. كأننا مواد نادرة بها يسترجعون ذكريات مجتمعات أهلية إنقضت. كأننا المدنيّون الوحيدون الأخيرون، إذ نحن لم يعد من سبيل لدينا لحمل السلاح، نهائياً، ولم يعد من سبيل لدينا للأصطفاف في جانب إحدى المجموعات المقاتلة، حتى ولا في بطون عشائرنا.

كأننا وحدنا الأفراد. وحدنا الخفة المتطايرة فوق سماء المدينة. كأننا غلافها الجوي الوحيد الذي يحفظها من الإنجذاب إلى الفراغ البعيد. بألسنتنا المتدلية وبؤبؤنا المرتجف، كأننا فرصتهم الوحيدة، الحبل الوحيد الذي يربط هذه الأرض، يخفف من ثقل الجذب إلى العصاب، وإلى الإنفلات عن عقلة الدورة الكاملة التي تبقينا في الأربع والعشرين ساعة

من إنتظام دورة الكرة. كأننا دواء العصاب والحافظون من جنون التطرف نعدّل في حرارته، حتى لا يتجمد فينكسر، أو يحترق، فيتطاير هباء.

نحن الذين فقدنا وعينا يستعيضون بفقداننا عن وعيهم.

نتشابه في خروج أجسادنا منا. في تردد أعيننا عن الرؤية وفي تجنّبها الضوء والوضوح. نتشابه في خروج أجسادنا إلى التخفف والنحول، وفي خروجها عن الانتظام إلى المزاج. لا نحب النوم في الليل بل الغناء كالصراصير القريبة في الحرش. ولا نحب النهوض في الضوء بل التكدّس في الأسرة تحت الأغطية الدافئة كالسناجب.

نتشابه في الخروج من جنس أجسادنا. لا نفهم لماذا يبعدوننا عن النساء كل جنس في عنبره وكيف يربطون بين بقايا رغباتنا وأجساد النساء. لا نفهم لماذا لا يعرفون كم أن أجسادنا وحيدة ومقطوعة، وأن رغبتنا، إذا جاءت، فإن لها هيئة اللعب. اللعب الخالص ذلك الذي لا يعرف الخسارة أو الربح، البداية أو النهاية. ربما لأننا أضعنا بداية أجسادهن صرنا كمن بين يديه لعبة ناقصة جداً. نراهنّ ونروح نجهد في تذكر شيء بعيد أحتفظنا له بطعم غامض، لا نستطيع ركنه في أدراجنا المفتوحة دائماً إلى الهواء. لا نفهم لماذا نثير فيهم شعوراً كالخوف أو كالقرف حين نمرر أيدينا على أعضائنا، أو نهدهدها علّها تذكّرنا بشيء ما نزال نحتفظ له بطعم غامض لا نستطيع ركنه في ميكانيكا أجسادنا القديمة. لكن ذلك لا يؤلمنا كما يؤلمهم. كأنه يبعث ذاكرتهم هم على طعم مرير.

حين تتشابه أجسادنا في سمّوها عن جنسها كهالات القديسين المضيئة. نذكّرهم بشفعائهم القدامى، بأجدادهم الذين كانوا بعيدين في قراهم البعيدة، والذين كانت حروبهم

أشبه بالتمارين على رياضة ضرب السيوف، وعلى تدريب الخيول وتطويع البغال. هؤلاء كانوا الرجال الذين حفظوا الذرية نقية لأنهم حملوا أعضاءهم في صرر من الجلود المدبوغة، وقدموها لنسائهم كمهور كريمة.

نحن الذين لا نحارب في هذه الحروب، لا جنس لنا نحمله إلى نسائنا. كأن النساء خرجن منّا حين خرجنا من قبائلنا دون أن نستحق الميراث. لأننا لم نمسك بالحبال التي كان يلقيها لنا الأجداد في عتمة دورة الأجيال، والتي كان علينا، لكي نتقدم في البلوغ وفي أجساد النساء، كان علينا أن نتمسك بها جيداً ونتبع الخيط الذي يخرجنا من دهاليز أجسادنا المراهقة.

نحن لم نرث معرفتنا. لم نرث أعضاءنا في الصناديق الخشبية الكبيرة مع صكوك الملكيات، وعباءات العشيرة، وخناجرها المصقولة. لذا تضيعُ نساؤنا مع أول هبة ريح، وبمجرد أن نخرج للبحث عن ماشية شردت في بخار المساء.

تضيع النساء منا. يتركننا كما تركتني إمرأتي. تركتني مرتين.

لكني عرفت حين تركتني في المرة الأولى أني إستردتها بالقوة. وأنها ستتركني مرة ثانية بما أنها تركتني مرة أولى. عرفت أن خيانتها لي سوف تتكرر وأن ما تفعله فيَّ، في قوتها المتصاعدة وفي ضعفي المتزايد، إنما هو إفقاري من جنسي وإخراجي من جسمي ومن جميع أمكنتي.

أخرجتني وأبقتني خارجاً. في العراء. انظر إلى جسمي ولا أطاله. أدور حوله ولا أستطيع الإقتراب. كتلك الأحلام التي نرى فيها ليلاً بيتنا مضاءً، في البعيد، ولا نستطيع دخوله. نتخذ إليه طرقاً نكتشفها للمرة الأولى ونعرف إذن أنها غير

تلك الموصلة إليه. وهو في البعيد، مضاءة نوافذه لكنه مقفل ولا تصله أصواتنا ولو نادينا بأعلى الصوت. ثم ننسى البيت، ونروح نغرق في الطرقات وفي التعرّف عليها. تأخذنا هموم الطرقات الموصلة إليه والتي بتنا عارفين متأكدين بأنها ما عادت موصلة إليه. ويزداد بعداً، فيما الخوف والرغبة إليه في أقصى إلحاحهما. هكذا كان جسمي فيما خوفي ورغبتي إليه. إليها، في أقصى إلحاحهما.

|٦|

لأني لم أعد أعرف لحياتي أي ضرورة. ولأني لم أعد أجد لنفسي أيَّ قدرة أو قوة كانت حاجتي تتعاظم ـ على نحو مخيف ـ للقدرة والقوة. لأن أكون ضرورياً لأحد. ضرورياً ـ حدّ عدم القدرة على الاستغناء عني.

لكن ممتلكاتي كانت قليلة جداً. ماذا كان بامكاني أن أقدم لها لما لن يمكنها الإستغناء عنه. ماذا كان بامكاني أن أقدم لها وهي، في كل يوم، ترى كم هي قليلة الأشياء التي أملكها، وكم أني لا أملك سوى ما يمكن الاستغناء عنه بسرعة وإرتياح.

كيف كان يمكنني الإحتفاظ بها ومنعها من تركي مرة ثانية. المرة الثانية مقبلة لا محالة.

لم تكن تخرج أبداً. كانت دائماً قريبة مني وفي متناولي. كانت، وهي المرأة التي تركتني مرة أولى تحاول دائماً ردّ

التهمة. تهمة لم أكن آتي أبداً على ذكرها، لكنها كانت دائماً معلّقة بيننا كمشنوق نكاد، كيفما تحركنا، أن نصطدم بقدميه الصفراوين، العاليين على سوية أبصارنا. لم أكن أشك في معرفتها ما يدور في رأسي وقلبي، في هواجسي. وحين استفيق في الليل، أجدها جالسة بقربي في السرير، تنظر إليّ في العتمة. أو هل كان يخيّل إلي؟ كم كان يحيرني حيئذٍ نومي الذي تراقبه. هل كانت تنظر إلى قلق الرجل النائم، الرجل الذي تحبه، أم أنها كساحرة يقظة أبداً كانت تسكب عليّ أفكاراً شريرة مستغلةً ضعفي في إغفائي، وعدم قدرتي على مقاومتها. ماذا كانت ترى في نومي ممّا لا أعيه عن نفسي. ماذا كانت ترى مما لا أراه.

كانت تريد أن تطمئنني بمكوثها الدائم في البيت وبإهمالها هيئتها. نادراً ما كنت أنتبه كم أنها تغيّرت. كانت دائماً ترتدي قميص النوم أو تلك الأثواب التي لا شكل لها، السميكة الباهتة اللون الفضفاضة التي توحي بشيء واحد فقط، بأنها رخيصة الثمن جداً، ولا تفعل سوى ستر البدن.

كانت تنتعل دائماً شمّاطة قديمة لي. كبيرة على قدميها وبشعة، ومنها كانت تظهر قدماها مهملتين. أظافر قدميها كانت دائماً مقصوصة ونظيفة لكنّ ساقيها فقدتا رطوبتهما الدافئة وكستهما قشرة رقيقة من البياض الكلسي المتكسّر، وكان الشعر النابت عليهما يقرّبهما من ساقي وقدمي الصبية والغلمان.

هل كانت تريد أن تريني زهدها بكل ما يتعدّاني، أم أنها كانت تفعل كلّ ما يمكنه أن يقمع رغبتي المتزايدة على نحو مجنون إلى جسدها. وكأن الإيقاع البيولوجي الذي ينظم أجساد الرجال قد تعطل عندي وطارت عقاربه في كل إتجاه.

لم يكن إهمالها هيئتها يخفف من رغبتي بأي حال. هل كان ذلك لأنها كانت تتحول إلى تلك النساء من قريباتي، اللواتي على أجسادهن الفائرة بغير إنتظام تفتّحت رغباتي الأولى صبياً، هل كان ذلك لأنها غادرت شكل النساء الغريبات المتأنّقات اللواتي نحلم بهن، وإذا قدرنا مرةً على تطويعهن فإننا سرعان ما نرتوي وننسى. أو كأن شكلها الذي كان يبعدها عن النساء الغريبات كان يوحي لي بشدّة إقترابها مني، وباستعدادها الدائم لاستقبالي كونها ملكيّتي أنا دون كل البشر، كل الرجال الآخرين.

إذا كان الأمر كذلك لماذا تراني كنت أغار عليها إلى هذه الدرجة. لم تكن ترى أحداً، ولم تكن تخرج، ورغم إطمئناني إلى تدهور شكلها كان يكفي أن يطيل بائع الخضار جملته قليلاً وهو ينظر في عينيها حتى ينتابني حنق شديد يخض جسمي. لا أغار عليها كما يخيّل إليّ عن غيرة الرجال. هؤلاء الذين يتصورون أن أي شيء ممكن بين الرجال والنساء، وأن المرأة كائن غامض يغريه أن يبعث الرغبة ويقيم الفتنة، وأن عقولهن لا تقاوم غواية الغرام وتصديق ألاعيب الرجال الخبثاء. لم أكن أغار غيرة كهذه. كان يعذبني أن ينظر إليها الرجال على أنها إمرأة، وحتى لو لم تشعر هي بشيء. كان يعذّبني أن يساووا بينها وبين النساء الأخريات، وأن يروها في هذه المنطقة العمومية التي يلعب فيها الخيال ويسرح المزاج. أن يجدوها شهية أو جميلة أو حتى لطيفة مهذبة، كإمرأة. أن يروا أنها إمرأة، وأن تسمح لهم أخيلتهم الفالتة الفاسدة بالصور والرغبات. لأني أعرفهم، الرجال. أعرف كيف يقطعون أجسام النساء إلى قطع مفصولة معلّقة في الخطاطيف فوق الأسرة في العتمة أو في الضوء. لا شيء يردهم عن إقتناء المرأة

التي يريدون ويختارون. وهي ليست إمرأة للاشتهاء كالنساء.

حصان غيرتي كان أيضاً يفر إلى الوراء، وأغار مما مضى من عمر جسمها دوني. ربما لأنها لم تكن إمرأتي. لكن كيف يضمن أي زوج في العالم أن تكون إمرأته له، وهي في الماضي لم تكن كذلك، وفي المستقبل لا ضمان بأنها ستكون.

لكني كذلك كنت أغار من النساء عليها. لا أحب أن تتكلم إليها الجارات. ولا أحب أن تستمتع بسماع أغنية أو بمتابعة ممثل وسيم على التلفزيون. كيف أقبل بكل ضعفي هذا، وأنا أقمعه باستمرار وأخجل من ظهوره فيَّ. لكنها، كأنها كانت تحدس كل ذلك فترجع عنه دون مطالبتي بشيء. لأنها كانت تحبني، كنت أقول في نفسي معلّلاً، فرحاً. لكن الشك كان سرعان ما يداخلني، وأفكر أنها إنما تفرغ جعبتي من كل أسهمها لترى ماذا يكون من أمري. تجاريني في رغباتي المريضة لترى متى أرضى عنها وأكف عن قلقي الذي لا بدّ تراه وتعرفه.

إلا أني عرفت في ما بعد بأنها كانت تعطيني كل ما أريد لكي أبتعد عنها. لكي أتركها بسلام. لكي أحاول على الأقل الكفّ عن تعذيبها.

هذا عرفته، لكني لم أعرف كيف كنت أعذبها... لم أعرف لماذا لا تقول لي أنت تعذّبني. فكفّ عن ذلك.

قلت لها مراراً لا بدّ أنني مخطىء في حقّها، لكني قطعاً لا أعرف حدود خطأي الحقيقي وعدت بالكلام مراراً إلى إستعادة يوم منعتها من الذهاب ورددتها بالقوة عن المعبر متواطئاً تواطؤاً بشعاً مع العسكري على الحاجز. إعتذرت لها كثيراً ومراراً وقلت لها أن باستطاعتها الذهاب متى تريد. لم أكن أبلف... لكني، وأنا أقول لها كل ذلك، كنت أشعر

أن تواضعي وإنسحاقي لا يستحقا منها سوى القبول بالإعتذار ونسيان الأمر برمّته. كانت تقول لي: لا بأس، لننسَ هذه القصة، كان ذلك بسبب شدّة حبك لي. لكنني كنت أشعر في قرارة نفسي، بأن جوابها ليس سوى تسوية، وبأنها لا تريد العودة إلى موضوع أطرح فيه أسئلة صعبة. كمثل سؤالي لها: لماذا أردتِ الهروب مني وتركي. مرةً قالت: لأننا لا نستطيع، لأنني كنت أعتقد أننا لا نستطيع أن نكون معاً، أن نستمر هكذا. ورغم إلحاحي في الإستفسار لم تضف كلمة واحدة. قالت أنتَ تعرف ما أقصد.

لا تتركني لأنها، إذن، ما زالت تحبني لكني كنت، مثلها تماماً، أعرف أني لن أدعها تذهب حتى لو هي حاولت ذلك. وكانت، مثلي تماماً، تعرف أن ضعفي هذا يشقيني وتحتمله معي. كأننا نحن الإثنين ابتُلينا بي.

في حيرتي الكبيرة تلك ماذا كان يتبقّى لي. ماذا كان يتبقّى لي سوى جذع جسدها الذي كنت أعتقد أنه لا يكذب، الجذع الذي سيرفعني إلى الهواء ثانية لأتنفس، أو يتركني للقاع الأسود الذي لا أعرف منه سوى أنها لم تعد تريدني.

لشدة ما كان قلبي وجلاً، كنت أقترب منها بثبات وإصرار في حركاتي. أعلن رغبتي عالياً حتى أسبقها، وأقطع عليها إمكانية رفضي أو التردد. سريعاً أمحو من رأسي إحتمال أنْ لا تلاقيني بفرح كبير. أقتنع بأن زهوَ رغبتي لا يُردّ، لأنه كبير وعارم ولا يسمح بغير الفرح والفخر واستثارة المزيد من الشهوة. لا أفهم كيف تبقى جامدة، وكيف بعد قليل تشيح بعينيها بعيداً عني. كأنّ كلّ ما يلمّ بي لا مكان له. أقول أنها ربما تتدلّل عليّ، ربما تذكّرني بأمر قبيح أتيتُه في النهار، ونسيته بالطبع. لا أتوقف كثيراً لأتذكّره وأحاول بيدي

ولهاثي الإعتذار عنه مهما كان. لكن كيف يصبح جسد المرأة التي نحبها قصاصاً. الجسد اللئيم الذي يقاصص. وهي تمضي في الإمتناع عليّ. وكأنّ لي كل ما أريده عداها. تُفهمني أن روحها في مكان آخر، وعليّ كالشاطر حسن أن أقطع البحار السبعة لغزاً لغزاً، وأفكّها حتى أجد روحها في الصندوق. أيّ صندوق؟ أنتِ هنا، أحاول أن أقول لها، أنتِ هنا وأنا أكاد أختنق غراماً ولهفة. لماذا أنا لا أستعمل جسمي. لماذا أهرقه لك ولا أحاسب أو أبالي. لماذا، بعد أن تركتني، وأردتِ الهروب بعيداً عني كبابٍ تقفلينه، كحادثة طارئة وعابرة تكون قبلها الحياة ثم بعدها، لماذا بعد هذا كله وفي اليوم نفسه كان رأسي على بطنك ينشج كالمرميّ لتوّه عن المقصلة.

ولا أعرف متى تمتنع عليّ ومتى تقبلني. أحياناً يخيّل إليّ أنها تقف أمامي بحبة السكر، حين أكون لطيفاً كدبّ، تكافئني. كان يعذبني ذلك كثيراً حين أصيب. لكنني لم أكن دائماً أصيب. أكون لطيفاً طيلة النهار كدبّ لطيف. أقوم بألعابي بنجاح، أبتسم وأصفق. أكون حسّاساً مدارياً، وديعاً. وفي الليل تمتنع عليّ... أحياناً أخرى أكون يائساً، مرّاً، جلفاً كبغل، أحرن عن كل شيء، وأدق أظلافي في الأرض طيلة النهار، أثير الغبار، أبعث روائحي الكريهة وأسمّم الهواء، فتأخذني في الليل إليها. لم أكن دائماً أصيب. ولم أكن مخيّراً في ضبط عيارات عذابي وخسارتي المتراكمة. لم أكن أفهم لأستفيد ولأستخلص العبر.

كانت تَقْبَلُني أحياناً. وأحياناً كانت تقترب مني دون أن أتوقّعها. تلتصق بي في المطبخ، أو حين أكون خلف المغسلة أحلق ذقني. أترك كل شيء ولا أتمهل في أخذها بين ذراعي

وفي طاعتها في كل ما تلمِّح إليه. حتى حين أكون مريضاً أحتفي برغبتها كثيراً كأني أُريد أن أريها حسن ذلك، علّها تكفّ عن ردّي عنها حين أُقبل برغبة تفوق رغباتها القليلة هذه.

لكن رغباتها القليلة راحت تقلّ حتى ما عادت تَقْبَلُني أبداً.

|٧|

لأننا ما عدنا ننفع في شيء، قال لي جابر، لا في الحروب ولا في نكاح النساء. لهذا يهتمون بنا هنا، ولا يلحّون في طلب الأموال من أهلنا. الآن تتكفّلنا الدولة لأننا صرنا أبناءها المدنيين. يقول جابر بأنه لم يعد يريد العودة، وبأنه بات يدّعي المرض، ويمثله تمثيلاً لكي يبقى بيننا. يحبّ أن تتكفّله الدولة بحنانها، فلا تطالبه بتحصيل قوته. لم أعد نافعاً لأهلي وعشيرتي لأني، لست فقط غير منتج لخبز أولادي، لست فقط غير قادر على حمل رشاش لمجرد الحراسة في الشارع، بل وصار جسم زوجتي يثير الشفقة فيهم وفيّ. فرج وحيد مستوحش متروك في العراء. طلّقتها وأتيت. كانت تبكي، وأنا أضحك. فقال أخي الكبير أرجعوه هناك كان الله في عونه وعوننا، وأنا إنصرفت كما ترى للتلذذ بسعادتي المطلقة.

كان يضحكني جابر. نضحك معاً كالغيلان. نضحك

حتى يزجرونا، لأن ضحكنا العالي، كان يثير الدبابير النائمة في رؤوس رفاقنا فيهتاجون.

|٨|

حين لا أتشمّمها كالجرو لا أراها. لم أعد أراها حين لا تكون أمامي. كذلك حين تقبع في حقدها الدفين عليّ.

حين تقبع في حقدها الدفين، لا تختفي عن عيني، ولا تبتعد عني إلى غرفة داخلية. بل تروح تلاطفني كحوت ينقرض. الأخير من جنسه وها هو في المراحل الأخيرة من إنقراضه القصدي.

تلاطفني لأكف عن إفرادي نفسي، لانتقل بنفسي إلى مكان يشبه أمكنة الآخرين التي تراها وتتخيلها. تكلمني، أعرف جيداً، كما يكلمون الأطفال والحيوانات. الأطفال الذين لم يعد من سبيل إلى ردهم عن عنادهم وحماقاتهم بالقصاص وحده، والذين في حماقتهم لا يأذون أنفسهم فقط، بل يروحون إلى تحطيم مقتنيات الآخرين. تلاطفني لتهدئني كحيوان، لأكف عن عوائي وعن عضيّ أعضائي.

أهدأ لتبتعد عني. ألبث لأرتب إنتقاماتي منها. لأرتب لها دروس الغرام الضائع. تلاطفني كأختها الصغيرة. كأني لست رجلاً.

ألبث قليلاً هادئاً في مكاني. دون ردّ فعل. أحدّق أمامي، أضع رجلاً فوق رجل، أتنفس بانتظام وبصوت مسموع لكي تعتقد أني ركنت وهدأت.

حين لا أكون فوقها لا أراها. لا أراها لأنها تكون قابعةً في حقدها الدفين عليّ، في حقد يشبه ذلك الذي يسبق اللحظة التي تقرر فيها أم الحيوان أن تقتل وليدها الضعيف أو المريض، أو أن تتركه في عراء الغابة لموته في مرضه وجوعه، ولتسير مع إخوته المعافين يتنططون حول أثدائها وهم يبتعدون.

أعرف حين تقبع في حقدها الدفين عليّ بأني رضيع بأسنان وأضراس، ثقيل ولا سبيل إلى قطع حبل صرتي النتن الذي أجره ورائي. أنظر خفية ومن طرف عيني إلى يدها البيضاء المدلّاة عن مسند الكنبة ويطلع فيَّ بكاء عميق. لأن دون تلك اليد الساكنة القريبة جداً وشفاهي، تقيم هي، تربض هي كتنّين.

أتنفس عميقاً وأشيح بعيداً عنها، لكن يدها تروح، كأنْ منفصلةً، تتنقّل بجناحين صغيرين أمام شفتي المفتوحتين. تأخذني على نفسي شفقة لا أملك التواضع اللازم من أجل إحتمالها.

كأني أرى الحبال الرفيعة المجهرية لأعصابي تلتف على نفسها وتحتقن. كأني أرى رباطات مفاصلي تقصر فجأة، وتستقيم كأسلاك المعادن، تحزّ في فتحاتها. كأني أرى أمامي مسام جلدي تنفتح كأفواه صغيرة شافطة. وأقول لن أضربها،

لن تحملني على ضربها. سأخرج في ليل الحروب، تحت القصف، حتى تقلق عليّ وتخاف أن أموت. حتى تخاف أن أموت وحتى تطلق العنان لرغبتها في موتي. أقول سأذهب لإمرأة أخرى تحبني وتموت على رائحتي. إمرأة تحبني وتشهق حين تراني في عين بابها الزجاجية. تعيش على حلم دخولي عليها في بعض وقتي المتعطّل، في بعض سأمي وضجري ورغبتي اللعوب في التغيير. في الإقتصاص قليلاً من تلك الرابضة بينها وبين جسمها كتنّين سخيف.

أدخل على المرأة الأخرى باسماً، مصطحباً نفسي اللطيفة الداجنة. كفرس أصيل أصطحب نفسي الثانية معي. أشرب كأسي الأولى وأنا أنظر إليها، وأغازلها على أحسن ما تعرفه أعراف الغزل بين الرجال والنساء. أترك لها فسحة المزاج اللازمة لتدلّلني فأدلّلها. أنصرف لها بكليّتي كالعشاق القدماء. أروح من أجلها أشبه الممثلين ورجال القصص الوسيمين. تشرق لي المرأة الأخرى كفسحة بعيدة في السماء الزرقاء. تروح من أجلي تشبه جنس النساء المبارك الحبيب. وأنا، أتابع رغبتها كخادم يتقن مهنته جيداً. أطيعها، وألحق خيط رغباتها كعلماء الخرئط. أهندسها على نحو ما تشتهي، وقد أنسى نفسي من أجل أن تزداد أَلَقاً بين يدي وتحت نفسي. أكون خالصاً في جنسي متماهياً مع لذته ومرتاحاً فيه كأني أجمل وريث لكل أجدادي الذكور. كأنهم بي إكتملوا وأقفلوا دائرة الأداء.

لا أغتسل، ولا أبقى طوال الليل. أعد المرأة الأخرى بالعودة القريبة، أقبّل يديها بامتنان، لكني أرفض الإغتسال والبقاء طيلة الليل. لا أنام عندها أبداً. كأنّ واجباً ملحاً يدعوني، كأن هذه الموجة الصغيرة التي تبدأ بالطلوع

والإحتشاد في بطني، بعد أن أغلق الباب ورائي، لن ينتظر تدّفقها طويلاً. علي أن أسارع قبل خيوط الفجر الأولى وأعود.

أعود سريعاً. أعود كأن باروداً يشتعل خلفي. أعود بزنختي وزنخة المرأة الأخرى كاملتين بائنتين. أدخل غرفة النوم وأجدها. نائمة أو تصطنع النوم إصطناعاً لتدّعي أنها لا تقلق عليّ من ليل الحروب، وأنها لا تربطني إليها أو تردّني عن النساء الأخريات. أغضب من نومها، وأغضب من أصطناعها النوم. أقف في العتمة أنظر إليها هادئاً، محاولاً إبتلاع غضبي المتصاعد من إستمرارها في النوم أو في اصطناعه. كأني ما أتيت. كأني ما خرجت.

أنظر إلى رأسها المائل على المخدة حيث تكون دافنة وجهها. أنظر إلى ثبات رأسها. وأنظر إلى التفافها على نفسها كالأولاد، إلى التفافها المحكم داخل الأغطية التي تجعلها حولها ككيس مربوط حول الرقبة. أنظر إليها وأعرف بلواي، مصيبتي، منابت قهري. هذه المرأة ليست إمرأة. وهي كذلك ليست رجلاً. إمرأتي ليست في أيّ الجنسين حتى أعمد إلى إدراجها في خزانة المحفوظات الملائمة وأستريح. وإلا فكيف تستطيع أن تكون لوحدها إلى هذه الدرجة. مقفلة في وحدتها إلى هذه الدرجة.

أرفع الغطاء عنها وأضربه في الأرض. لا تلتفت إليّ. كم من الوقت أستطيع أن أمكث في الحاجة. كم من الوقت أستطيع أن أمكث في الحاجة لأن تتحرك أو تلتفت. كم من الوقت أستطيع أن أمكث في ترددي، في الحيرة، ثم في الذل. لماذا لا تكونين إمرأة، وتقفين صارخة في الليل: أين كنت. لماذا لا تغارين عليّ من النساء. لماذا لا تقلقين عليّ من حروب

الشوارع، تحيطيني بالرقيّات من الرصاص الطائش. من لكِ غيري. تتركيني حراً كالأيتام أم حراً كالرجال؟ إذا كنت رجلاً فلماذا لست رجلكِ؟

أقف في العتمة. أقول في نفسي أنها الكحول وليست الرغبة في الإجهاش بالبكاء.

أمسكها من شعرها، وأطويها جالسة في السرير. تفتح عينيها، ولا تنظر إلي. اللعنة. أية قسوة، أية قسوة. أشعل النور وأخلع ثيابي أرفع قميصها البشع، وأفتح ركبتيها بقوة فلا تقاوم. تمد يدها إلى الزر فوق السرير وتطفىء الضوء. لا، أريد أن أرى. وأريد أن أرى أنك ترين. أريد أن أرى أنك ترين أني أرى كل تلافيف ما تريدين أخفاءه ومنعه علي. أن تري أني أرى أن لك جنساً. أنك إمرأة وأنا رجلها. تشدّ بساعدها على عينيها، فأصفعها. إفتحي عينيك. إفتحي كل ما ينغلق فيك واستقبليني. لا تجمدي. لا تُضربي وتحتجّي. إفعلي كل ما تمليه عليك رغباتي. سأخترع لك رغبات مريضة غريبة عجيبة وأرى ماذا ستفعلين.

أرى خيطين لزجين يلتمعان عند صدغيها. تباً. اللعنة عليك اللعنة. فات الأوان كل الأوان. أقع. كأني أقع فيها حين أدَخلها بالقوة. كأن القوة هي ثقلي الذي لا خيار لي بوقوعه من هذا العلّو الشاهق.

أكون مجروحاً وموجوعاً كذئب حين أعوي فوقها. وقبل أن أسحب نفسي منها أتمنى موتاً فورياً يهبط علي كملاك، ينقضّ على قلبي ويقتلعه ويحلّق عالياً كلمح البصر.

وحتى لا أبكي، وقبل أن أبكي بقليل أنهال عليها ضرباً. أنهال عليها ضرباً فتلتصق بي. أبعدها وأضرب كالأعمى فتلتصق بي بكل قوتها. ثم تحاول ضمّ رأسي إليها. ثم ترتفع

عن الأرض إلي وتضمني. تعرف إذن وترى كل شيء. يا للجحيم. أمسكها من شعرها وأدق رأسها على البلاط، فتضع يدها بين رأسها والبلاط حتى لا يشجّ رأسها. لا تصرخ، لا تئن، ولا تصرخ، ولا تقول كفى. يخطر لي أنها لا تريد أن يسمعنا أحد. أن يرانا، أن يراني أحد. لا تريد أن أضطر إلى حملها إلى المستشفى. لا تريد شهوداً يعذّبني أن أتذكرهم في ما بعد. لا تريد لي الفضيحة. تريد حمايتي.

أقول هي الشيطان وأضرب. أظلّ أضرب حتى تكلّ يداي ويتعب جسمي ويفرغ تماماً.

وأنام.

|٩|

لم أعد أرى أبي في أحلامي. لم أعد أرى أبي ليعلّمني.

كنت في أحلامي أرى أبي فارع الطول كبيراً. كأنه ترك قدّه الصغير حين تركنا ومات. لم أكن أتكلم إلا فى أحلامي، إلا إليه. أقول له يا أبي في قلبي حزن قاس ومتكوّر كحجر، فيضع كفّه على صدري ويصير الحجر رخواً. أقول له يا أبي أني مقهور لأني أضعت بلبلي الخشبي الأحمر فيقول لي أبي: تذكرّ أنك خبأته عن عيني أسماء في جوربك الصوفي، وفي الصباح كان بلبلي يدور ويطنّ متمايلاً على البلاط.

لم أعد أرى أبي في أحلامي ليعلّمني. ليعلمني كيف يراضي الرجال النساء الزعلانات. كأن أبي هو الذي ضاع مني هذه المرة، من جملة ما ضاع، فكيف أتدبر لي أباً يدلني عليه.

لذا، تبقى أسئلتي معلّقة في الشمس والهواء. أراها من

بعيد كثياب مدلّاة على حبل غسيل في قرية غادرها أهلها من زمان بعد أن وقعت بيوتها من طولها على الارض كما يقع الأولاد.

كيف أسترضيها وأنا أعرف أن أسفي وإقراري بالذنب لا ينفعان معها، ولا ينفعان معي لأني أعرف كذلك أن ندمي سيميل لا محالة حين ستميل شمس النهار. أروح أردد لنفسي أن كل نساء الأرض يحلمن برجل يشتهيهن إلى هذا الحدّ. يخترعن الأعاجيب من أجل ذلك. وحتى لو لم تكن عاشقة لا يمكن لأي إمرأة أن تتجاهل كل هذه الرغبة لأنها كفيلة بذاتها أن توقعها بالغرام، ولو غروراً. لا يمكن ألّا نحب من يحبنا إلى هذه الدرجة، وإلا فمن نحن إذن...

كيف أسترضيها وأنا لا أملك أن أقدم لها شيئاً، أن أمنحها لذة وأنا أغار عليها من كلّ اللّذات سوى واحدة. لذة الأكل.

أدخل المطبخ وأروح دون أن أكلّمها أعد لها مفاجأة عارمة، أعدّ لها الأطباق الطيبة التي أعرف جيداً أنها تحبها. أرتاح وينعدل مزاجي وأنا مستغرق في الطبخ. في غسل الخضار وتنقيتها في فرم البصل، وتسييح السمن. في السلق والقلي والشيّ. ورغم عدم مرونتي، وجلافة حركاتي أروح أصفّر وأغني كأني في عيد. كأني أدعوها إلى حفل عارم، وأنا أرندح بمقاطع من أغانٍ تحضرني للتو لم أكن أعرف كيف حفظتها ومن أين. أغانٍ من تلك الدارجة التي تتشابه أسماء مطربيها الشبّان، والتي أعرف دون أن أرى ذلك بعيني أنها تثير ضحكها.

أجهّز الطاولة، وأدعوها للأكل بصوت تتغنّى فيه كل إستعداداتي للمصالحة. للمصالحة عن طريق المحو والنسيان

وكأن شيئاً لم يكن. . . تأتي تجلس وتبدأ بالأكل. كانت تأكل كثيراً. أستحثها على أكل المزيد، ولا أدع صحنها يفرغ وهي تأكل بنهم يزيد من رغبتي في ملء صحنها مجدداً. كنت أنظر إليها تأكل كل هذه الكميات بفرح عميق. ربما لأن الأكل كان يطمئنني على صحتها. على صلابتها وقوة إحتمالها. وربما لأن الأكل كان يؤكد لي بأنها ليست شقية معي. فالنساء الشقيات اللواتي لا يعشقن رجالهن يصبن بالسقم والشحوب. كنت أراها تسمن، تسمن وتستدير وتفقد إنسياب جسمها الجميل لكن من يحب إمرأة كما أحبها لا يعود يهتم كثيراً بشكلها. أم تراني كنت أفرح بسمنتها لأنها تبعدها عن شهوة الرجال الآخرين طالما أن شهوتي إليها كبيرة ومتعاظمة.

لكنها كانت تأكل كثيراً، ولا تلتذ كثيراً بالأكل. كأنها كلّما أكلت أكثر قلّ تلذذها وكان من الطبيعي ألّا أنجح إذن في إسترضائها وفي محو ذنوبي عن طريق إطعامها. . .

لذا، كنت أعود إلى مراودتي الفظة إياها في الليل. كإمتحان جديد أقربه خائفاً خافياً خوفي كأنه الإمتحان الأول. كنت أعود إليها لأسترضائها بمنحها اللذة الوحيدة التي كانت متبقيّة لي.

|١٠|

قالت لي أسماء ما كان ينبغي أن تردها بالقوة عن الحاجز حين حاولت العودة إلى أهلها ذلك اليوم، لكن لا تخف، هذه الليلة أنا واثقة من أنها تأخرت عن العودة بسبب القصف. لكنني في تلك المرة الثانية لم ألحق بها لأردّها، ذلك أني كنت واثقاً من أنها ستعود من نفسها.

قلت يوماً لجابر وهو يتمّطى في الشمس: أتعرف يا جابر أن روح الإنسان لا تخرج من فمه، وإلا فكيف يموت من يختنق. قال جابر: صحيح من أين تطلع روحه؟ قلت: كان الناس ـ وما زالوا ـ يعتقدون أن روح الإنسان تخرج من فمه، لأن الفم أوضح المخارج، أقلّها إثارة للخوف، وأشرفها، لأنه آلة الكلام والصلاة. ولأن على الروح حين تخرج ألا تترك أثراً مادياً.

تخرج روح الإنسان من باب البدن، ليس لأنه باب، مخرج

للخروج، بل لأنها تترك أثراً حقيقياً، ولو إتفقنا جدلاً أنه ليس من طبيعتها. حين يرى الناس المتحلّقون حول من هو في نزاع أخير، أنه أخرج خروجه يشيحون بوجوههم عنه، يوقنون أنه قد غادرهم الآن إلى غير رجعة، وتولول النساء.

أغتم جابر وقال لي: تفو. عيشة كلاب. تفو. فقلت له لكن تخرج روح الإنسان من جنسه أيضاً وفي الوقت نفسه. وفي أرتعاشة أخيرة تترك أثراً كالذي، في البدء، داخل بويضة أمه، دعاه إلى النزول أصلاً بيننا. وكأن العمر بكامله يدور بين هذين الثقبين: واحد للأكل وواحد للحب. قال جابر: تفو. قلت: وقد يروح الحب من حب النساء إلى حب الله والموسيقى. ثقب للجسد وثقب للروح. قال جابر: أحسنت. ما زال لي حظ إذن بتذوق تلك الإرتعاشة حين أموت.

ضحكنا كثيراً. ظللنا نضحك، ونتدحرج على الحشيش الأخضر ونضحك حتى جاؤوا وأسكتونا.

لكنني في غرفتي فكرت أني كنت جاداً في ما قلته للمجنون جابر: أن روح الإنسان، التي دخلت من جنس أبيه ومن جنسه خرجت، إنما هي تقيم هناك.

|١١|

سوف تعود لأني ربيّت روحها. بذلت لها الدمع الغزير. كأنّ هذا الألم الذي قعدنا عليه، ننحته ونصقله حتى غدا كالكريستال يتشظى الآن، وتفسد صورتنا فيه إذا إفترقنا طويلاً.

سوف تعود لأنه ينبغي علينا أن نكمل ما بدأناه. لأن لا شيء أبداً، يحدث مرة واحدة. على الشيء أن يتكرر أو أن يفسد تماماً ويخرب.

في مرتفعاتهم البعيدة يدفن هنود الغويهيرا موتاهم مرتين.

حين يموت الميت، ينقلونه إلى بيته كما هو، إن وقع خارج البيت. لا يغسلونه ولا يبدّلون ثيابه. يلفّونه في شرشف أبيض ونظيف ويحملونه إلى مدفن العائلة. للعائلة مدفن واحد كبيت صغير جداً. يردّون عليه باب المدفن، ويبكون الليل بطوله، وفي الصبح يرجعون إلى مشاغلهم. لكن معرفة الموت ودفن

الميت لا تحمل إلى قلوب أهله اليقين الحقيقي بأنه ما عاد بينهم. فغياب اليقين هو العذاب. غياب اليقين هو الشوق المستمر لرؤيته ثانية. كأنه لا يموت إلا إذا مات مرة أخرى نكون حضّرنا لها أنفسنا، حتى لا يجيء الموت ويخطفنا معه على حين غرّه.

بعد أن يدور القمر دورته ثانيةً ويسجّل الوقت المنقضي، يعود أهل الميت إلى المدفن. يخرجونه ملفوفاً في الشرشف، يودّعونه، ثم يعيدونه إلى داخل المدفن. يحرقونه وهم صامتون، ثم يخرجون عظامه. ينقّونها جيداً ثم يغسلونها وهم يبكون. ثم يشقعون العظام النظيفة في جرّة صغيرة ستستقر في المدفن إلى جانب جرار الأجداد والأخوة. لا يتدبّرون عذابهم إلا إذا دفنوه مرتين. وفي المرة الثانية يموت فعلاً ويبدأ حدادهم المشروع عليه حيث سيتذكرونه، بعد أن يفرغ البكاء، في سهراتهم المليئة بالحكايات المسليّة.

|١٢|

سوف تقول: لقد خطفني ذلك الرجل مرتين.

مرة حين أحببته وتبعته، ومرّة حين أخذ روحي، روحي التي كنت أعتقدها حرّة فالتة وفي مكان آخر.

حين ستموت ستنتصب روحها عمودياً على جسدها المسجّى وتقول لها من أين خرجت. ولماذا إذن فقط حين نَبلغ تبدأ معرفتنا بالموت. وكيف ولماذا من الغرام الأول يقف الفتيان ببثورهم الكئيبة، وبعيون السجناء المرحّلين إلى الجزر البعيدة، ينظرون إلى الضفة الأخرى، إلى حيث سيرون دائماً ذلك الثقب الأسود كعين الزوبعة، غرض حنينهم الأخير. وكأنّ ذلك الحب الأول طعم أولي لموت سوف يتمرنون عليه طويلاً على أنه اللذة القصوى.

سوف تعود لأني قشرت روحها كفاكهة، وعلّمتها أن الحياة أقل من أن تحظى بجسدين إثنين لأن لمسة الرجال

الآخرين ستكون تكراراً. لقد علّمتُها الرقي والتسامي حين كسرتُ سير هورموناتها وجعلت لها، وهي في عمر النساء، جسد الطفلات الصغيرات النظيف، وعلمتها كيف يرقى الجسد بالتجريد حتى يغلق روحه دون لمس الرجال البذيء الذي سيكرر عذاباً وحيداً تعرفه جيداً. لتغلقَ روحها التي لا يطالها أحد إلا من ذلك الموضع.

ستروح روحها بعيداً إلى الداخل لترقى وتسمى وتضيء.

|١٣|

في الشارع حين ستمشي سوف، كالقطب، ينجذب إليها، ويعلق في مغنطة فسحتها، المجانين والقديسون، وهؤلاء الذين يكون موتهم قريباً.

الأمكنة حيث تتوقف، ستكون مصدر الشعاع الدائر بذبذبته الخفية التي تنتقي وتختار، وتلمّ إليها هؤلاء الذين صاروا، وهم بعد بين الجميع، صاروا يسيرون على طبقة من الهواء المضغوط بعذاباتهم. عيونهم وأنفاسهم سوف تلتوي باتجاه ضوئها كالنباتات الخضراء.

لأن نجمها سيكون خفيفاً كملاك، سوف تمتص موجات أرواحهم المضطربة فيعرفونها من بين الآلاف، ويتّجهون نحوها لينظروا في عينيها. لينظروا في عينيها، وليقول لها المدفن أنه يتألم، وأنه الآن يحتمل آلامه.

هكذا ترتفع وتيرة الجنون حتى أقصاها حين تكون قريبة.

وحين يراها المجنون يهدأ كما تهدأ مياه قبل المصب بقليل تاركة زبدها عند الأفواه.

وهؤلاء الذين تعرف أجسادهم موتها القريب، يبحثون عنها لكي يقعوا على مقربة من يديها. لتلمسهم ويذهبوا بصورة وجهها معهم. ليتذكروا ضوءها اللطيف.

سيعرفون إمرأتي من بين الآلاف لأنها تشبههم كثيراً، ولا تشبههم أبداً. لأنها بينهم وأبداً ليست معهم. يقعون في ثقل اللحم الذي لهم من زمان لكي يكلوا إليها بالملح القليل الذي يشتعل حين تكون على مقربة. لكي يورثوها ملحهم، ولكي ترسل عظامهم آخر إشتعال فوسفورها، بدل أن يعسّ عسّاً، وينطفىء في عطنه. لكي، حين يغرمون بها، يخرجوا من مدافنهم الصغيرة ويحترقوا ويموتوا مرتين. ككل العشاق النبلاء الذين لا يصلون أبداً.

لأن الحيوانات تسالمها، والكلب الهائج يهدأ حين تمر، ويروح ناظراً إليها يمرّغ رأسه في الأرض، لا يمكنها أن تكون لي وحدي. عليها أن تكون لهؤلاء جميعاً. لأنها ليست لأيّ منهم. ولكي يعطي وجودُها طعماً للملائكة. لكي تكون الملائكة موجودة، ولكي نعرف أن لثقلنا نحن العشاق أملاً بخفّة ما. إن لعذابنا شفيعاً.

|١٤|

لكن كان ينبغي أن تعود.

كان ينبغي أن تعود، وأن أقتلها لكي يتابع المجانين والقديسون وهؤلاء الموشكون على الموت طريقهم المرسومة في فراغ الفوضى.

لأن حيواتنا الموقوفة هي كذلك دوماً، وأن لا عدالة ننتظرها في الأرض، ولا حين ستخرج أرواحنا من ثقبيها تاركة آثارها التي، لنسلّم جدلاً، ليست من طبيعة الروح. كان ينبغي أن أقتلها لأن إمرأة واحدة لا تكفي، ولأن شواذ القاعدة هو عذاب القاعدة الأقصى. ولأن كل إمرأة نحبها هي شواذ القاعدة وعذابها الأقصى.

لأن القاعدة هي لمن يهرمون بطيئاً، ثم ينطفئون، ولمن ينقصفون بالحروب دون علم منهم أو معرفة بانقصافهم، بغتةً، كمطر نسمع صوته خلف النافذة فجأة. وهو من زمان

يهطل. فقط نسمع حين نسكت عن حديثنا المسلّي، ونستعد لتوديع زوار المساء.

لأن القاعدة ليست لمن يموت عشقاً، لمن يموت من عذابه وشوقه للخفة والضوء وخيال الحبيب. لأن القاعدة للممدّدين على الحمّالات في أروقة الطوارئ في المستشفيات الحكومية، هؤلاء الذين تعثروا، وهم يسيرون ملبّكين بأيامهم وباستفاقاتها الكئيبة بين الباصات.

للذين، مصطفين على الحمّالات، ذاهلين، يروحون لا في الغيبوبة بل في التساؤل حول تعطّل آلاتهم. ففي الغيبوبة يرون أجسادهم كآلات معقدة غريبة وبعيدة. يتساءلون ليس فقط أين نحن بل ما هذا، وهم يشيرون فزعين إلى الآلات.

هكذا تغيب النظرة التي يعرفها لهم أهلهم. تعود تلك التي كانت في المرة الأولى. ذاهلة باحثة عن أول أجسامهم. كأن نظرتهم الفارغة لنا، إنما هي ممتلئة مرتدة إلى داخلهم.

إنها لهم، القاعدة. لمخلوقات الربّ! السوية، للأعداد الهائلة المتراصة المترصفة المتلاطمة، الذين يرقدون على الأسرّة النظيفة، وعلى حمّالات المستشفيات. وعذاب القاعدة نحن: الثقيلو الأحمال، المجانين، قديسو الفوسفور، الكلاب المسعورة، العشاق، والقتلة الفاشلون. وهي.

| خاتمة |

أعرف أنه مضى وقت طويل وأنا هنا.

أعرف أني تعبان ومريض في عقلي، لذا حين أعود أحياناً من نسياناتي الكثيرة، أفكرّ بأني لم أقتلها. بأني لم أقتل أحدا. بأن عقلي المريض كان، مفكّكاً، يتقافز في رأسي، فالتاً على هواه.

ربما لم توجد أبداً تلك المرأة التي كنت أراها في دائرة من الشمس، قاعدة بلا حراك في الحديقة تحت نافذتي، وربما جّمعتها من نساء عديدات عرفتهن لأملأ فراغ جسمي من الرغبة. فالطبيب يلمح لي دائماً بأن عندي شكوكاً كثيرة لا مبرّر لها.

قلت للطبيب يوماً بأني قد أُشفى. وبأني أعرف علامة شفائي، وهي أن أستطيع السير مغمض العينين في المستشفى أو حتى في الحديقة دون أن أصطدم بشيء أو بأحد. وأن

أستطيع أن أرى حدود الأشياء لا الأشياء، حركة الناس لا الناس، وأن أُحسن التجّنب.

ربما لم أقتلها. أشك عميقاً بأني أمسكت رأسها ورحت أضربه على الحجارة حتى شجّ وماتت. أشك في قدرة جسمي على هذا، وأشمئز منه. لم تكن هناك حين هشلت في الوعر ووجدني الشابان اللذان إختطفاني إلى المنطقة الغربية. لم تكن هناك ليس بسبب أنها صعدت إلى السماء، بل ربما لأني لم أقتل أحداً.

ربما عادت إلى زوجها، ولم ترجع إليّ بعد ليلة القصف كما كانت تطمئنني أختي أسماء لعودتها في اليوم التالي. وربما هي معه الآن، قربه، في سلام البلاد الذي خيّم عارماً خالصاً نهائياً، في بيتهما البعيد الذي لا أستطيع أن أتصوّر له شكلاً أبداً، فيما أنا، ما زلت قاعداً في ليلة القصف حيث تركتني، أتأمل في فراغي منها، قبل الفجر بقليل، ككلّ أهل الهوى.

يا ليل.

للمؤلفة:

«زائرات»

مجموعة قصصية. دار المطبوعات الشرقية، بيروت ١٩٨٥.

«حجر الضحك»

رواية. دار رياض الريّس، لندن ١٩٩٠.

أهل الهوى رواية الحدود القصوى من كلِّ شيء، على غرار ما يصنع «الهوى» بأهله. الشخصيّات لا تنمو في سياقات دراميّة متصاعدة، وكذلك الأحداث. إنها، جميعها، تبدأ من الحدّ الأقصى، من ذروة ما تمليه الإنفعالات والمشاعر، وما يُنسج، تالياً، في السياقة ليس أكثر من ذرائع لحدِّ الذروة هذا.

الحرب ماثلة، في الخلفية التي تلازم المشهد، ولكنَّها الخلفيّة البعيدة، إذ تستحيل عنفاً للداخل وفي الداخل. أقصى الحبّ في تصاريف الشغف بين رجلٍ وامرأة، وأقصى الكراهية. الحبّ إلى الجنون. والحبُّ إلى القتل. وليست مفارقة، لأنَّ «أهل الهوى» هي رواية هؤلاء الذين وصلوا إلى نقطةِ اللارجوع، حيث الخوف أكبر من الحياة، وحيث الرغبةُ هي الوجه الآخر للموت.

بعد «حجر الضحك» (جائزة «الناقد» للرواية، ١٩٩٠)، تُعمِّق هدى بركات، في عملها الروائي الثاني، تجربةً ستكون لها مكانتها المميّزة والأكيدة.



تصميم الغلاف: رشا سلطي اللوحة «مشهد لنوتر دام» لهنري ماتيس